رثاء الأقارب في شعر البهاء زهير

موضوعاته وملامحه

إعـداد

دكتور/ عبد الهادي بن إبراهيم العوفي

الأستاذ المساعد في كلية اللغة العربية

الجامعة الإسلامية- المملكة العربية السعودية

١٤٤٥ هـ- ٢٠٢٣م

ض

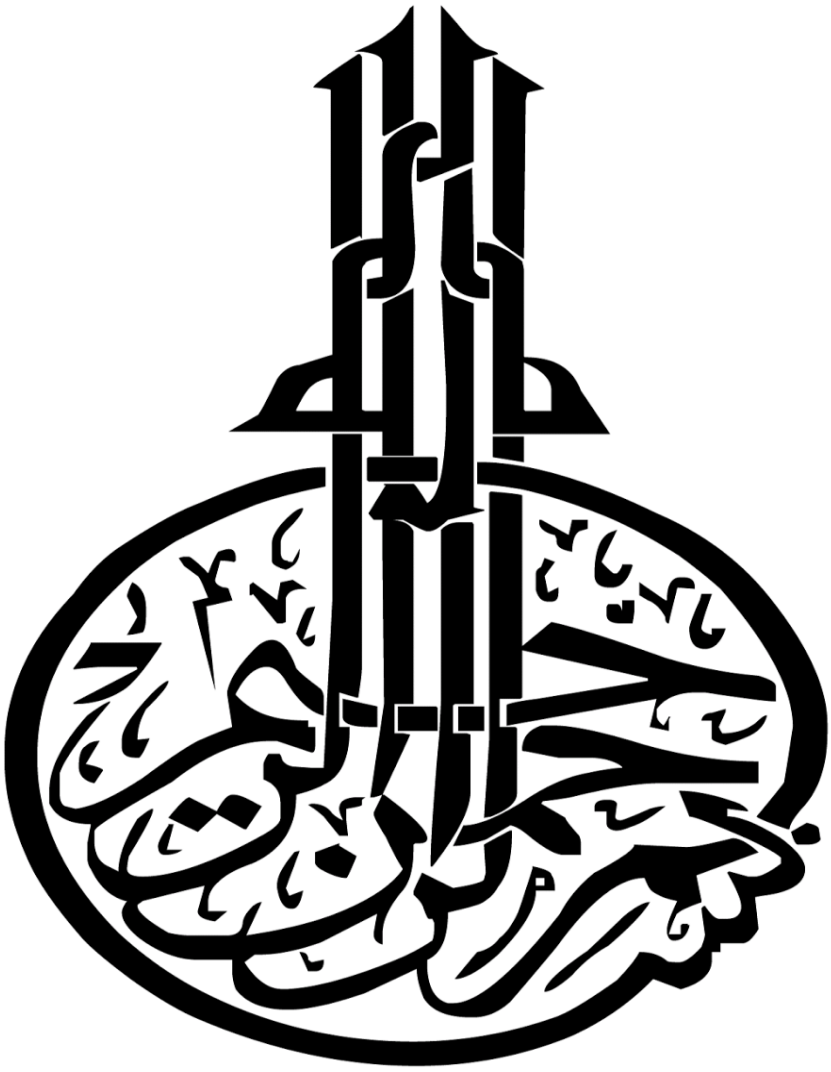

رثاء الأقارب في شعر البهاء زهير ـ موضوعاته وملامحه

عبد الهادي بن إبراهيم العوفي
قسم الأدب والبلاغة، كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السعودية.
البريد الإلكتروني:
ffu0802@gmail.com

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث المعنون بـ (رثاء الأقارب في شعر البهاء زهير –موضوعاته وملامحه) إلىٰ دراسة هذا اللون من الرثاء، والرثاء من الأغراض النبيلة التي تكون المشاعر فيها صادقة لا سيما إذا كان ذلك الرثاء للأقارب، فالعاطفة ستكون في قمة سموّها وصدقها، وهذا ما لمسته في رثاء البهاء زهير عند رثاءه لابنه ولأخيه، وقد أتىٰ رثاؤه لأقاربه في مستوىٰ شعري عال يختلف ويتفوق علىٰ كثير من شعره، وعلىٰ الرغم من جودة غرض الرثاء عنده وخاصة لأقاربه إلا أنه لا يزال بحاجة إلىٰ المزيد من التعمّق في البحث والدراسة، وهذا ما حاولت القيام به في هذا البحث، وقد اقتضت طبيعة البحث أن يتكون من مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة. فالمقدمة فيها موضوع البحث وأهميته والدراسات السابقة وخطة البحث ومنهجه، أما التمهيد ففيه عرض موجز عن الشاعر وشعره، وعن غرض الرثاء وأهميته. وأما المبحث الأول فهو موضوعات رثاء الأقارب، وفيه مطلبان: رثاء الابن، ورثاء الأخ. وفي المبحث الثاني تحدثت عن أبرز الملامح الفنية لرثاء الأقارب عند الشاعر، وفيه عدة مطالب هي: التكرار، وبعض الأساليب الإنشائية (الأمر والاستفهام والنداء)، ومن ثمَّ التشبيه، يليه الطباق، و التناص، وختمت البحث بخاتمة لخّصت فيها أبرز النتائج والتوصيات التي توصل إليها البحث. وأما منهج البحث: فهو منهج وصفي تحليلي.

الكلمات المفتاحية: البهاء زهير– رثاء الأقارب– الموضوعات– الملامح الفنية.

Lamentation of Relatives in the Poetry of Bahāʾ Zuhayr: Its Topics and Features

Abdul Hadi bin Ibrahim Al-Owaifi
Department of Literature and Rhetoric, Faculty of Arabic Language at the Islamic University of Madinah, Saudi Arabia
E-mail: ffu0802@gmail.com

Abstract:

The purpose of this research, entitled "Lamentation of Relatives in the Poetry of Bahāʾ Zuhayr: Its Topics and Features," is to study this genre of lamentation. Lamentation is one of the noble genres of poetry, in which the emotions are sincere, especially if it is a lament for relatives. In this case, the emotion will be at its peak of nobility and sincerity. This is what I found in Bahāʾ Zuhayr's lamentations, especially when he lamented his son and his brother. His lamentations for his relatives came in a high poetic level that differs and surpasses much of his poetry. Although the genre of lamentation is of good quality in his poetry, especially for his relatives, it still needs more in-depth research and study. This is what I tried to do in this research. The nature of the research required it to consist of an introduction, a preface, two researches, and a conclusion. The introduction includes the topic of the research, its importance, previous studies, research plan, and methodology. The preface includes a brief overview of the poet and his poetry, and the genre of lamentation and its importance. As for the first research, it discusses the topics of lamentation of relatives. It has two sections: lamentation of the son, and lamentation of the brother. In the second research, I discuss the most prominent artistic features of lamentation of relatives in the poet's poetry. It has several sections: repetition, some constructive methods (imperative, interrogative, and vocative), then comparison,

followed by antithesis, and intertextuality. Iconcluded the research with a conclusion that summarized the main findings and recommendations of the research. And as for the research method: it is a descriptive and analytical method**.**

Keywords: Bahāʾ Zuhayr- Lamentation of Relatives- Topics- Artistic Features.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه، وبعد:

يعد غرض الرثاء من أبرز أغراض الشعر التي طرقها الشعراء علىٰ مر العصور، ولو تتبعنا الشعر العربي منذ العصر الجاهلي إلىٰ يومنا هذا فقلّما نجد شاعراً إلا وقد نظم شعراً في الرثاء، لأن هذه الحياة لا تخلو من فواجع ومصائب تمرّ بالإنسان سواء كان شاعراً أو ليس بشاعر، ولكن الشاعر يختلف عن غيره من الناس، من حيث إظهاره لمشاعره وعواطفه، فالشاعر تستهوي شاعريته ما يمرّ به في جميع جوانب الحياة، حتىٰ ولو كان ذلك الأمر غير ذي بال عند عامة الناس، فكيف إذا تعلّق الأمر بفقد عزيز أو قريب، فلن يفوّت الشاعر تلك المشاعر التي اعترته، وتلك التجربة الشعورية التي مرّ بها، وحتماً سيظهرها في تجربة شعرية وسيبثنا أشجانه وأحزانه علىٰ ذلك المفقود.

والرثاء من أصدق أغراض الشعر، وغالباً ما تكون العاطفة فيه صادقة، فالشاعر لا يرثي تكسّباً ولا مجاملة، ولا رجاء عرض من الدنيا، كما أنه لا يرجو من الشخص المرثي شيئاً؛ لأن ذلك الشخص قد ذهب عن هذه الحياة وغادرها فلا يرجىٰ منه شيء.

وهناك نوعٌ خاصٌ من الرثاء، وفيه تكون العاطفة والمشاعر والأحاسيس في أوج صدقها، وفي قمة سموّها، فهي صادقة كل الصدق، ومخلِصة كل الإخلاص، وذلك حينما يرثي الشاعر ابنه، أو من هو بمنزلة الابن أو أدنىٰ، كالأم والأب ونحوهم من الأقربين.

وقد لفت انتباهي عند قراءتي لديوان شاعر مشهور من شعراء العصر الأيوبي وهو بهاء الدين زهير، لفت انتباهي قصيدته المشهورة في رثاء ابنه الذي رحل صغيراً وترك شاعرنا يعاني مرارة الفقد وأسىٰ الفراق، يقول في مطلعها[١]:

نهـــاكَ عـــن الغوايـــةِ مَـــا نَهاكَـــا وذُقـــتَ مـــن الصَّـــبَابةِ مـــا كَفَاكَـــا

فبحثت عن قصائد أخرىٰ لرثاء الأقارب في شعر الشاعر فوجدته قد رثىٰ أخاهعليًا بقوله[٢]

يعـــز عَلَـــيّ فقـــدك يـــا عَلِـــيّ ألا لله ذا الأجـــــل الـــــوحِيُّ

ولم أجد له سوىٰ هاتين القصيدتين في رثاء الأقارب، قصيدة في رثاء ابنه وأخرىٰ في رثاء أخيه، فعقدت العزم علىٰ دراسة هذا اللون من الرثاء عنده ليكون عنوان البحث (**رثاء الأقارب في شعر البهاء زهير- موضوعاته وملامحه**)

الدراسات السابقة:

هناك دراسات كثيرة حول شعر البهاء زهير، ولكنها دراسات عامة عن الشاعر، أو عن غرض الرثاء في العصر الأيوبي عامة، ولم أجد دراسة خاصة بغرض الرثاء أو رثاء الأقارب عند البهاء زهير علىٰ الرغم من أن مراثيه رائعة، وتفصيل الدراسات السابقة علىٰ النحو الآتي:

١. **البهاء زهير حياته وأدبه د. علي نجيب عطوي**، وقد قسّم الباحث بحثه إلىٰ أربعة فصول، الفصل الأول: عصر الشاعر وتناول فيه الحياة الاجتماعية

---

(١) ديوان بهاء الدين زهير، شرح وتحقيق: محمد طاهر الجبلاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف، القاهرة ص ١٩٢ - ١٩٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

والاقتصادية والفكرية، والفصل الثاني: مولد الشاعر ومنشأه، والفصل الثالث: الموضوعات الشعرية التي تطرق إليها الشاعر، والفصل الرابع: آراء النقاد في شعر البهاء زهير، وقد تحدث المؤلف عن غرض الرثاء لدىٰ الشاعر في ست صفحات فأورد رثاء الشاعر لعزيز عليه بخمسة أبيات، ثم أورد رثاء الشاعر لابنه وأورد نص القصيدة كاملة، ومن العجيب أنه قد ذكر أنها لرثاء صديق له !، وقد أعقب ذكره للقصيدة بتعليق مباشر لا يتجاوز سبعة أسطر، ثم أورد رثاء الشاعر لبعض إخوته ويسمىٰ "علي" ثم ذكر رثاء الشاعر لصديق له يسمىٰ "عثمان "، وهذا مجمل ما ذكره في الرثاء، وعموم ما ذكره إيراد لنصوص الرثاء كما وردت في الديوان بدون شرح أو تعليق أو تحليل[1].

٢. **فن الرثاء في الشعر في العصرين الفاطمي والأيوبي، خلود يحيى أحمد جراده**، رسالة دكتوراه بإشراف د. عبد الجليل المهدي، الجامعة- الأردنية، كلية الدراسات العليا، ٢٠٠١م، وقد تحدثت الباحثة عن رثاء الأبناء في العصرين معـًا في الصفحات من (٣١ـ ٤١)، أي في عشر صفحات فقط، ولم تدرس رثاء الأقارب عند البهاء زهير وإنما أومأت في آخر المبحث إلىٰ ثلاثة أبيات من قصيدته، تقول: "ويختلف البهاء زهير في طبيعة الفداء الذي يريده ويتمناه لابنه، فلا نجده يتمنىٰ الموت بدلا من ابنه بل يتمنىٰ أن الناس جميعا ماتوا فداء له:

فَلَيتكَ لو بَقِيتَ لِضَعْفِ حَالي ... وكانَ الناسُ كُلهمُ فِداكَا

وهو مع حزنه الشديد يفترض أن يموت هلاكـًا بعد موته، فما الموت حزنـًاوَفَرَقًا إلا وفاء له:

---

[1] البهاء زهير حياته وأدبه، د علي نجيب عطوي، ١٩٩٣م، ص ١٥٢.

وَمَـــــالي أَدّعِـــــــي أني وَفِيٌّ وَلَســـتُ مُشـــاركًا لَـــكَ في بَلاكَـــا
تَمـــوتُ ومَـــا أَمُـــوتُ عَليـــكَ حُزنـــًا وَحـــقّ هَـــوَاكَ خُنتـــكَ في هَوَاكَـــا"[1]

٣. شعر البهاء زهير ـ دراسة أدبية نقدية للباحث أحمد محمد الشفة، رسالة ماجستير في جامعة أم درمان بالسودان، وتقع في (١٣١) صفحة وقد تحدّث عن الأغراض الشعرية التي طرقها الشاعر وتحدث عن غرض الرثاء بشكل عام في شعر الشاعر في حدود (٤) صفحات فقط، وحديثه كان عاما عن غرض الرثاء لدىٰ الشاعر، أما حديثه عن رثاء الأقارب فقد كان مقتضبًا جداً حيث لم يتجاوز (١٥) سطراً، ولم يكن فيه تحليل أدبي أو فني وإنما هو عبارة عن تعليق قصير علىٰ بعض أبيات القصائد.[2]

٤. رثائية الهجر الطويل لبهاء الدين زهير ـ قراءة أسلوبية للدكتورة سعدة مبارك الدعدي وهذا البحث يقع في بضع وعشرين صفحة، تناولت فيه الباحثة قصيدة الشاعر في رثاء ابنه مرتكزة علىٰ المنهج الأسلوبي، فعرّفت بالمنهج الأسلوبي وأصّلت له، ثم تناولت القصيدة من حيث المستويات الأسلوبية الدلالي والتركيبي والإيقاعي، وهذا البحث يختلف عن بحثي من الوجوه الآتية:

أولاً: أن بحثي سيتناول رثاء الشاعر للمقرَّبين، لابنه وأخيه معًا بينما دراسة الدكتورة سعاد اقتصرت علىٰ قصيدته في رثاء ابنه.

---

(١) فن الرثاء في الشعر في العصرين الفاطمي والأيوبي، خلود يحيىٰ أحمد جراده، رسالة دكتوراه بإشراف د. عبد الجليل المهدي، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، ٢٠٠١م، ص ٤١.

(٢) شعر البهاء زهير ـ دراسة أدبية نقدية، أحمد محمد أحمد الشفة، رسالة ماجستير في جامعة أم درمان بالسودان بإشراف الدكتور: صلاح عبد اللطيف، ١٤٣٨هـ، ص ٤٩، ٥٠.

ثانيًا: تختلف دراستي عنها من حيث طريقة التناول ومن حيث المنهج، فدراسة الدكتورة سعاد دراسة أسلوبية محضة.

ثالثًا: اتّسم بحث الباحثة بالاختصار في التحليل والاقتصار علىٰ بعض النماذج والشواهد.

والدراسات كثيرة حول الشاعر، ولكن لم أجد دراسة تناولت هذا الموضوع الذي نحن بصدد الحديث عنه[1]

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يتكون من مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة وفهارس.

فالمقدمة فيها موضوع البحث وأهميته والدراسات السابقة وخطة البحث ومنهجه، أما التمهيد ففيه تعريف موجز عن حياة الشاعر وشعره، وبيان موجز عن غرض الرثاء وأهميته.

وأما المبحث الأول: موضوعات رثاء الأقارب في شعر البهاء زهير، ففيه مطلبان، أولهما: رثاء الابن وثانيهما: رثاء الأخ.

وقد خصصت المبحث الثاني للحديث عن الملامح الفنية لرثاء الأقارب عند البهاء زهير، وفيه عدة مطالب هي: التكرار، وبعض الأساليب الإنشائية كالأمر والاستفهام والنداء، ومن ثمَّ التشبيه، يليه الطباق، وختمت هذا المبحث بالحديث عن ظاهرة التناص، تَلَت ذلك خاتمة حَوَت أبرز النتائج والتوصيات التي توصل

---

[1] من هذه الدراسات علىٰ سبيل المثال: أثر الإسلام في شعر البهاء زهير، بحث محكّم في مجلة جامعة الملك عبد العزيز، التناص في شعر بهاء الدين زهير ـ دراسة موضوعية وفنية، روان محمد العزام، رسالة ماجستير، وغيرها من الدراسات.

إليها البحث.

وأما منهج البحث: فهو المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم علىٰ دراسة وتحليل وتفسير معلومات البحث من خلال تحديد خصائصه وأبعاده، ووصف العلاقات بين موضوعاته، بهدف الوصول إلىٰ وصف علمي متكامل له[1]، وسأتوخىٰ فيه الخطوات الآتية:

- ـ استقراء نصوص الرثاء للأقارب وتصنيفها.
- ـ وصف تلك النصوص واستنطاقها قراءة وتحليلاً.
- ـ الرجوع للمصادر الأصلية ما أمكن ذلك.
- ـ عزو الآيات القرآنية والأحاديث النبوية إلىٰ مصادرها.
- ـ توثيق الأبيات الشعرية من مصادرها.
- توثيق النصوص موضع الدراسة في أول ذكر لهما، وذلك لأن البحث سيقوم علىٰ دراسة نصين فقط قصيدته في رثاء ابنه والأخرىٰ في رثاء أخيه، فسأكتفي بعزوهما في أول ذكر لهما.

---

[1] انظر: الحديث الموضوعي ـ المنهج والتأصيل والتمثيل، لطيفة الراشد، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، ١، ١٤٤٣ هـ، ص٦١.

التمهيد

أولاً: التعريف بالشاعر حياته وشعره

اسمه ونسبه: هو زهير بن محمد بن علي بن يحيىٰ بن الحسن بن جعفر بن منصور بن عاصم المهلّبي العَتَكي الملقب ببهاء الدين الكاتب وينتهي نسبه إلىٰ المهلّب بن أبي صُفرة[١].

كنيته ولقبه: يكنىٰ بأبي الفضل وبأبي العلاء، ولقب كذلك ببهاء الدولة، وببهاء الدين نظام الدولة، وهذه الألقاب والكُنىٰ تدلّ علىٰ مكانة الشاعر وعلو كعبه، لأنها كانت تمنح لكبار الأشخاص في الدولة بإذن من السلطان[٢].

مولده ونشأته: ولد البهاء زهير في وادي نخلة قرب مكة المكرمة في الخامس من ذي الحجة سنة ٥٨١هـ، وقضىٰ بمكة بضع سنوات وتعلم بها مبادئ العلم، ثم ارتحل إلىٰ مصر وهو في ريعان الشباب، وأقام في مدينة قُوص حيث تلقّىٰ فيها بعض العلوم والمعارف، ثم انتقل إلىٰ عاصمة العلم والعلماء القاهرة لينهل فيها العلم، ويلتقي بوجهائها وأعيانها، ثم رجع إلىٰ قوص مرة أخرىٰ وبقي في خدمة بعض أمراءها، ثم عاد ثانية إلىٰ القاهرة واتصل بالأمراء والسلاطين بها.[٣]

أخلاقه وصفاته: البهاء زهير من فضلاء عصره، وكان متحلياً بمكارم الخلال وجميل السجايا، يقول ابن خلّكان: " كنت أودّ لو اجتمعت به لما كنت أسمعه عنه،

---

(١) ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت ٢/ ٣٣٢ـ٣٣٨.

(٢) ينظر: البهاء زهير، عبد الفتاح شلبي، دار المعارف، مصر، ط ٢، ص ١٩-٢٠.

(٣) ينظر: وفيات الأعيان ٢/ ٢٣٢.

فلما وصل اجتمعت به ورأيته فوق ما سمعت عنه من مكارم الأخلاق وكثرة الرياضة ودماثة السجايا، وكان متمكنًا من صاحبه، كبير القدر عنده، لا يطلع علىٰ سره الخفي غيره، ومع هذا كله فإنه كان لا يتوسط عنده إلا بالخير، ونفع خلقا كثيرا بحسن وساطته وجميل سفارته"[١]

وهذا القول من ابن خلكان يدل علىٰ أن البهاء زهير كان مضرب المثل في الأخلاق حيث يتمنىٰ كثير من الناس الاجتماع به، وهذا ما حدث فعلا مع عالم كبير كابن خلّكان.

ومن أبرز صفات الشاعر صفة الوفاء، ومن يقرأ ديوانه يجده يتمثل ذلك الخلق كثيراً في شعره، كما أثبتت ذلك بعض كتب التاريخ، وقد ذكر المقريزي شيئًا من القصص التي تدل علىٰ ذلك [٢]، كما أنه صاحب دعابة وظرافة وهذا واضح لمن قرأ ديوانه.

هذه أبرز أخلاقه وصفاته الخُلُقية، أما صفاته الخَلْقية فقيل إنه كان دميم الخلقة، يميل لونه للسواد، كما كان قصيراً، شيخًا بذقن مُقرطمة، وكان غريب الشكل. [٣]

شعره: شعر البهاء زهير يمتاز بشكل عام بالسهولة والوضوح في ألفاظه وتراكيبه، وكذلك في صوره وأساليبه، ويصدق عليه ما قاله ابن خلّكان: "وشعره كله لطيف، وهو كما يقال السهل الممتنع"[٤]

---

[١] وفيات الأعيان ٢/ ٢٣٣.

[٢] ينظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٠/ ٢٨٨.

[٣] ينظر: الوافي بالوفيات للصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفىٰ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ٤/ ١٥٩.

[٤] وفيات الأعيان ٢/ ٣٣٦.

وتجدر الإشارة إلىٰ أن البهاء زهير كان شاعراً عميق الثقافة، يظهر ذلك جلياً في قصائده، لا سيما الثقافة الدينية التي انعكست كثيراً علىٰ شعره، ولم يكن محفوظه من الشعر العربي القديم قليلا، فقد أثّر في شعره وترك فيه بصمات واضحة "وفي ديوانه ما يدل علىٰ تأثره بالشعر العربي القديم، وببعض الأخبار التاريخية العربية، وتضمينه بما قاله القدماء، دليل علىٰ أنه كان يحفظ كثيرا من أشعارهم، وأن مهارته الفنية جعلته يصطنع في شعره هذه الأجزاء من الشعر القديم، وكأنها في موضعها الطبيعي من شعره، وهذه مقدرة لا يستطيعها إلا كلّ من رسخت قدمه في الفنّ، فلا غرو أن البهاء كان من شعراء مصر الممتازين، ولا غرابة في أن يُعجب به كلّ من عاصره، وكلّ من جاء بعده"[1]

وقد طرق البهاء زهير أغلب أغراض الشعر المعروفة كالحكمة والغزل والرثاء والمديح والإخوانيات وغيرها.

وفاته: توفي البهاء زهير في مصر يوم الأحد الرابع من شهر ذي القعدة سنة (٦٦٥هـ) إثر مرضٍ ألمّ به، ودفن بالقاهرة رحمه الله وعفا عنه.

---

(١) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين، محمد كامل حسين، دار الفكر العربي، ص ٢٠٠/ ٢٠١.

ثانيا: الرثاء وأهميته:

يقال في اللغة رَثَأْتُ الرجلَ رَثْأً وتعني مدحتُه بعد موته، وهي لغة في رَثَيْتُه، وَرَثَأَتِ المرأةُ زوجَها كذلك؛ وهي المَرْثئَة، وقالت امرأةٌ من العرب: رَثَأتُ زوجي بأبياتٍ، وَهَمَزَتْ، أرادتْ رَثَيْتُهُ، قال الجوهري: وأصلُه غير مهموز.(١)

وقد تعددت تعريفات ومعاني الرثاء ولكنها في مجملها تشير إلىٰ أن الرثاء هو: تعداد مناقب الميت وإظهار التفجّع والتلهّف عليه واستعظام المصيبة فيه(٢)

ويعد غرض الرثاء من أهم الأغراض الشعرية التي طرقها الشعراء، وهو بابٌ فسيحُ الرّحاب والنّوادي، فصيح اللسان في إجابة المنادىٰ ذي القلب الصادي؛ متباين الأسلوب، مختلف الأطراف متباعد الشعوب؛ منه ما يُصمي القلوب بِنِبَالِه، ومنه ما يسلّيها بلطيف مَقَالِه؛ ومنه ما يبعثها علىٰ الأسف، ومنه ما يصرِفهَا عن موارد التَّلف، وقد أكثر الشعراء القول في هذا الباب، وارتقوا الذّروة العلياء من هذه الهضاب؛ ووجدوا مكان القول ذا سَعَةٍ فقالُوا، وأصابهم هجير اللوعة فمالوا إلىٰ ظلّه وقالُوا، قال الأصمعي: قلت لأعرابي: ما بال المراثي أشرف أشعاركم؟ قال: لأنا نقولها وقلوبنا محترقة(٣)

والرثاء غرض من أغراض الشعر الغنائي الذي يعبّر فيه الشاعر عن حزنه علىٰ المفقود، وهو يتلوّن بألوان مختلفة، فإذا غلب عليه البكاء علىٰ الراحل وبثّ اللوعة كان نَدْبًا، وإذا غلب عليه تسجيل الخصال الحميدة التي تمتّع بها الفقيد في حياته كان تأبينًا، وإذا غلب عليه التأمل في حقيقة الموت والحياة كان عَزَاء، وقد تجتمع جميع ألوانه في القصيدة الواحدة(٤)

---

(١) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٤١٤ هـ، ١/ ٨٣.

(٢) ينظر: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب لأحمد الهاشمي، أشرف علىٰ تحقيقه وتصحيحه: لجنة من الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت، ٢/ ٢٦.

(٣) ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، لشهاب الدين النويري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣ هـ، ٥/ ١٦٥.

(٤) ينظر: أروع ما قيل في الرثاء، أميل ناصف، دار الجيل، بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ، ص ٥.

المبحث الأول: موضوعات رثاء الأقارب في شعر البهاء زهير

المطلب الأول: رثاء الابن

يتمنىٰ كل إنسان أن يرزق بأبناء يعيش معهم حياة طويلة؛ لأنهم فلذات الكبد وثمرة الفؤاد، فهم زينة الحياة الدنيا وهم المعين والمساعد عند الكبر؛ فمن الصعوبة بمكان فقدانهم وهم في مقتبل العمر أو في ريعان الشباب، وإذا فُقدوا فقد يحصل للشخص من الألم والحسرة ما يحصل، ذلك لأن الفاقد حينئذ يشعر بأن حبل الأمل ورجاء المنفعة والخير من الابن قد انقطع، وإذا كان ذلك الفاقد لا يقرض الشعر ولا يحوك القوافي فقد تبقىٰ تلك الآلام والحسرات في خَلَده وفي خَلَجَات نفسه، وقد ينكفئ علىٰ ذاته ردحًا من الزمن، أما إن كان شاعراً فالشعراء لا يملكون إلا البوح بتلك المشاعر بالقصائد والأبيات ويبثون فيها أشجانهم ولواعج أنفسهم.

ورثاء الأبناء نال رواجًا عند كثير من الشعراء علىٰ مر العصور، فهذا الشاعر الأموي جرير يرثي ابنه "سوادة" بقصيدة يقول في مطلعها[1]

قَـالُوا نَصِـيبُكَ مِـنْ أَجْـرٍ فَقُلْـتُ لهـم ... كَيـفَ العَـزاءُ وقـدْ فَارقـتُ أَشْـبَالي

هــذا سَــوَادةُ يَجلــو مُقْلَتَــي لَحــمٍ ... بَـازٍ يُصَرْصِـرُ فـوقَ المرقَـبِ العَـالي

فارقتـهُ حـينَ غـضَّ الـدّهرُ مـن بَصَـري ... وحـينَ صِـرتُ كَعَظْـمِ الرّمّـةِ البَـالي

---

[1] ينظر: الكامل في اللغة والأدب، لأبي العباس المبرد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٣، ١٤١٧ هـ، ص ١٧٨.

وكرثاء الشاعر أبي الشغْب لابنه شَغْبًا حين يقول[١]

قَـدْ كَـانَ شَـغْبٌ لَـو أنَّ اللهَ عَمّـرهُ ... عِـزاً تَـزادُ بِـهِ فِي عِزّهَـا مُضَـرُ
لَيْـتَ الجِبـالُ تَـدَاعَتْ قَبـلَ مَصْـرَعِهِ ... دكًّـا فلـمْ يَبْـقَ مـن أحجَارهَـا حَجَـرُ
فَارقـتُ شَـغْبًا وقـدْ قَوّسْـتُ مـنْ كِبَـرٍ ... بـئسَ الخليطَـانِ طُـولُ الحـزنِ والكِبَـرُ

ومن أبرز القصائد التي رثىٰ فيها الشعراء أبناءهم في أدبنا العربي قصيدة ابن الرومي التي مطلعها:

بُكَاؤكُمَـا يَشْـفي وإنْ كـانَ لا يُجـدي ... فَجُـودَا فَقَـدْ أَوْدَىٰ نَظيركُمَـا عِنْـدِي[٢]

ولو تتبعنا رثاء الشعراء لأبنائهم لأتينا بالشيء الكثير علىٰ مرّ العصور الأدبية، ولم يتخلّف شاعرنا البهاء زهير في هذا الميدان حيث إنه سطّر أروع القصائد في الرثاء وأصدق المشاعر تجاه فقيده وابنه المحبوب فيبدأ الشاعر مرثيته بمطلع يَشِي بالحسرة والأسىٰ فيقول:

نَهَـاكَ عـنِ الغِوايـةِ مَـا نَهَاكـا ... وَذُقْـتَ مـنَ الصّـبابَةِ مَـا كَفاكَـا
وَطَـالَ سُـرَاكَ فِي لَيـلِ التّصَـابِي ... وَقَـدْ أَصْـبحتَ لـم تَحْمَـدْ سُـراكَا
فَـلا تَجـزَعْ لحادِثَـةِ اللّيَـالي ... وَقُـل لـي إنْ جَزِعـتَ فمـا عَسَـاكَا
وَكَيـفَ تَلُـومُ حَادثَـةً وفيهَـا ... تَبـيَّنَ مَـنْ أَحبَّـكَ أَوْ قلاكَـا

يتحدث الشاعر في الأبيات السابقة عن نفسه مخاطبا لها ولائما ومعاتبا، فهو يرىٰ أنه قد أتاه ما ينهاه عن الغواية وأنه قد ذاق من الصبابة ما كفاه، وأنه قد طال سراه في

---

(١) ينظر: العقد الفريد، لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الشهير بابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٤ هـ، ٣/ ٢١٤.

(٢) ديوان ابن الرومي، تعليق وشرح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ١/ ٠

ليل التصابي، وفي العادة أن من سرىٰ بالليل وأدلج حتىٰ أدرك الصباح فإنه سيحمد ذلك السُّرىٰ ولكن شاعرنا لم يكن كذلك، فقد طال سُراه في ليل التصابي ودروب الغواية وظلام الصبابة، فلما انقشعت تلك الغمة، وزالت تلك الظلمة، وأسفر نور الصباح وضياءه عَضّ شاعرنا أصابع الندم، فقد كان سادراً في غيّه، تائهًا عن رشده فأصبح ولم يحمد سراه، والمقصود بالسرىٰ السير في الليل، وقد استدعىٰ الشاعر في البيت المثل العربي المشهور "عند الصباح يحمد القوم السرىٰ" ويضرب به المثل في احتمال المشاق والصعاب والحثّ علىٰ الصبر رجاء الفوز ونيل المراد.

وينهىٰ الشاعر نفسه عن الجزع من المصائب والألم من الحوادث حين يقول: (فلا تجزع لحادثة الليالي)، وهو هنا يذكّرنا بقول الإمام الشافعي [1]

دَعِ الأيـــامَ تفعـــلُ مَـــا تَشَـــاءُ وطِـــبْ نَفْســـًا إذا حَكَـــمَ القَضَـــاءُ
ولا تجـــزعْ لحَادثَـــةِ اللَيَـــالي فَمَـــا لحَـــوادِثِ الـــدُّنيَا بَقَـــاءُ

ويطرح علىٰ نفسه سؤالا إنكاريا: وقل لي إن جزعتَ فما عساكا؟ فينهىٰ نفسه وينكر عليها الجزع فماذا عسىٰ الجزع أن ينفع؟ وتتوالىٰ الأسئلة التي يطرحها الشاعر حول هذا الحدث الجلل الذي ألمّ به، ويسائل نفسه قائلا:

وكيـــفَ تَلُـــومُ حَادثـــةً وفيهَـــا تَبَـــيَّنَ مـــنْ أَحبَّـــكَ أو قَلاكَـــا

فهو لا يلوم هذه الحادثة التي ألمت به ففي باطنها خير؛ لأنه من خلالها عرف

(١) ديوان الإمام الشافعي شرحه وضبطه وعلق عليه الدكتور: عمر فاروق الطباع، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، ص ٣٥.

أحبابه من أعدائه، وهو هنا يذكرنا بالبيت الشهير [١]:

جَـــزَىٰ اللهُ الشـــدائدَ كُـــلّ خَيـــرٍ عَرَفْـتُ بهـا عَـدوّي مـن صَـديقي

ثم يكرر لوم نفسه في الأبيات الآتية فيقول:

برُوحـي مَـنْ تَـذوبُ عليـهِ رُوحـي وَذُقْ يـا قلـبُ مـا صَـنَعَتْ يـداكَا
لَعَمْـري كُنـتَ عـن هـذا غَنِيًّـا ولـم تعـرفْ ضَـلالَكَ مـن هُـداكَا
ضَـنِيتُ مـنَ الهـوىٰ وشَـقِيتُ مِنـهُ وأنـتَ تجيـبُ كـلَّ هـوىً دعاكَـا
فَـدَعْ يـا قلـبُ مـا قـد كنـتَ فيـهِ ألَسـتَ تـرَىٰ حَبيبَـكَ قـد جَفاكَـا
لقـد بَلَغَـتْ بـهِ روحـي التراقـي وَقـد نَظَـرَتْ بـهِ عَينـيْ الهَلاكَـا

يفدي الشاعر ابنه بروحه في قوله "بروحي" ثم يقرر أن روحه قد أصبحت في حالة ذوبان شديد بسبب هذه الحادثة، ويحمّل قلبه كل هذه المآسي، فعليه أن يتحمل تلك المسؤولية ويتذوق شدة الألم، ثم يقسم ـ بقوله لعمري ـ أنه كان في غنىٰ عن كلّ ما حدث؛ لكنه لم يعرف الضلال من الهدىٰ فحصل ما حصل.

وما يزال الشاعر يخاطب قلبه ويعاتبه ويحمله المسؤولية في كل ما وقع، فقد تعب من الهوىٰ وشقي به، ومع ذلك فإن قلبه لا يطاوعه في مسألة الهوىٰ والحب فهو يجيب داعيه، ويستجيب لدواعيه، ويرىٰ الشاعر أن علىٰ قلبه التوقف عمّا كان فيه من الهوىٰ والصبابة والحب؛ لأنه لم يعد لهذه المعاني مكانة في قلبه، ويسأل قلبه: لماذا لا تتوقف وتدع ما كنت فيه؟ ألست ترىٰ حبيبك ـ ابنه المتوفىٰ ـ قد جفاك وفارقك؟ فالشاعر في صراع وحوار مع نفسه وقلبه.

---

[١] هذا البيت مشهور علىٰ ألسنة الناس ومتداول، وقد نسب للإمام الشافعي في بعض المواقع والموسوعات الالكترونية، ولم أجده في أكثر من طبعة لديوانه.

ويتضح لنا تأثر الشاعر بالآية القرآنية ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ [١] وذلك في قوله: "لقد بلغتْ به روحي التراقي" فالشاعر يكاد أن يموت ويلحق بابنه من شدة الحزن عليه، فروحه قد بلغت التراقي، فهو علىٰ شفا الهلاك.

وبعد أن عاتب الشاعر نفسه وحاورها وعاب عليها سلوكها سبيل الغواية والصبابة والهوىٰ يتوجه بعد ذلك بالخطاب إلىٰ ابنه الفقيد بتفجّعٍ وحسرة وأسىٰ، فيقول:

فَيَا مَنْ غَابَ عني وَهوَ رُوحي ... وَكَيْفَ أُطيقُ مِنْ رُوحي انفِكَاكَا
حَبيبي كَيفَ حتّىٰ غِبْتَ عنّي ... أَتَعْلَمُ أنّ ليْ أحَداً سِوَاكَا
أراكَ هَجَرتني هَجْراً طَويلاً ... وَما عَوّدْتَني مِنْ قَبلُ ذاكَا
عَهِدْتُكَ لا تُطيقُ الصّبرَ عنّي ... وَتَعصيْ في وَدادِي مَنْ نَهاكَا
فكَيفَ تَغَيّرَتْ تِلكَ السّجايَا ... وَمَنْ هَذا الذي عنّي ثَنَاكَا
فلا واللهِ مَا حَاولتَ عُذْراً ... فكُلّ النّاسِ يُعذَرُ مَا خَلاكَا
ومَا فَارقْتَني طَوْعَاً ولكنْ ... دَهَاكَ مِنَ المَنيّة مَا دَهَاكَا
لَقَدْ حَكَمَتْ بِفُرْقَتِنَا الليَالي ... ولمْ يَكُ عنْ رِضَايَ ولا رِضَاكَا
فلَيتَكَ لوْ بَقيتَ لضُعْفِ حَالي ... وَكَانَ النَّاسُ كُلّهمُ فِدَاكَا
يَعزّ عَليّ حِينَ أُديرُ عَيْنِي ... أُفتِّشُ في مَكَانِكَ لا أَرَاكَا

يزيد تفجّع الشاعر وأساه بفقده لابنه الصغير الذي عبّر عنه بقوله "روحي" فلقد غابت عنه روحه، وهل يمكن للإنسان أن يعيش بلا روح؟ إذن فهو يرىٰ نفسه قد فارق الحياة وإن كان لا يزال يمشي علىٰ وجه الأرض، فقد أصبح بعد فراق ابنه جسداً بلا روح!

(١) سورة القيامة الآية ٢٦.

يطرح الشاعر هنا أسئلة متوالية، أسئلة يعي بأنها لن تلق إجابة، ولكن شدة الوجد وألم الفراق جعله يوجه تلك الأسئلة، ويستعمل لفظة (حبيبي) في قوله (حبيبي كيف حتىٰ غبت عني) يسأله كيف يغيب عنه وهو يعرف أنه لا أحد سواه، وقد لامس الشاعر في هذا البيت المشاعر بشدة، فلا أحد يتحمل هذا الفراق الشديد وخاصة في مثل هذا الموقف العصيب موقف فقد الابن صغيراً، ولا سيما أنه لم يتعود منه علىٰ الهجر الطويل، وإنما اعتاد منه علىٰ عدم الصبر عنه، فهو لا يطيق البعد منه، ويخالف كل من يأمره وينهاه عن ذلك الوصل وذلك الود:

عَهِـــدْتُكَ لا تُطيـــقُ الصّـــبرَ عنـــي وَتَعصـــي في وَدادِي مَـــنْ نَهاكَـــا

ويتساءل كيف تغيرت تلك السجايا والأخلاق التي كانت عنده؟ ومن الذي ثناه عنه فلم يعد يحبه ويتفقده! بل يهجره هذا الهجر الطويل، ثم حلف بالله أنه لن يقبل منه العذر، وعليه ألا يحاول، فعذره غير مقبول أبداً.

ثم إنه يخفف هذا العتاب علىٰ ابنه، ويعلل ذلك الفراق وأنه ليس اختياراً منه ولا طواعية، وإنما الموت هو الذي دهاه وداهمه وفعل به ما فعل ويسند الفعل إلىٰ غير فاعله الحقيقي وهي "الليالي" وأنها السبب في هذه الفرقة التي حصلت بدون رضاً منهما، ثم يتمنىٰ بقاءه وعدم رحيله مراعاة لضعف حاله، ويتمنىٰ أيضاً أن قد فداه بكل الناس:

ومَـــا فَـــارقْتَني طَوْعـــاً ولكـــنْ دَهـــاكَ مـــنَ المَنيّـــةِ مَـــا دَهَاكَـــا
لقـــدْ حَكَمـــتْ بِفُرْقَتنَـــا الليـــالي ولـــمْ يَـــكُ عـــن رِضَـــايَ ولا رِضَـــاكَا

ويختم الشاعر هذا المقطع بكلمات تتملأ أسفًا ولوعة وحزنا، فبيّن لنا أنه قد اشتد عليه الأمر، وصعب عليه الحال وذلك حين يدير عينيه، ويقلّب مقلتيه، ويلتفت يمنة ويسرة مفتّشًا عن ابنه في مكانه الذي كان يراه فيه، ولكن للأسف لا

يرىٰ غير الذكريات التي تبعث لواعج الشوق والحنين وتجدّد الأحزان:

فلَيتَكَ لَوْ بَقيتَ لضُعْفِ حَالي ... وكانَ النَاسُ كلهمُ فِداكَا
يعزّ عليّ حينَ أُديرُ عَيْنِي ... أُفتِّشُ في مَكَانكَ لا أَرَاكَا

ثم ينتقل الشاعر إلىٰ ذكر بعض مناقب وصفات ابنه الفقيد، ويستعمل الحرف "لم" الذي يدل علىٰ النفي، كما استعمل الحرف" لا" الذي يدل كذلك علىٰ النفي، فهو لم ير في الماضي ولا في الحاضر مثله في شمائله وخصاله المليحة الجميلة، وهذا هو السبب الذي جعله يختم علىٰ وداده ومحبته في ضميره، وهذا الوداد علىٰ الرغم مما حصل من الفراق إلا أنه لا يزال مختوما ومكتوبًا في فؤاده، فيقول:

وَلَم أرَ في سِوَاكَ وَلا أرَاهُ ... شمائلكَ المليحةَ أو حَلاكَا
خَتَمْتُ علىٰ وَدادِكَ في ضَميري ... وليسَ يزالُ مختوماً هُناكَا

ويستخدم الشاعر أسلوب الاستعارة فيجعل للمنايا يداً قد عجلت عليه دون أن تمنحه الحظ في العيش وإكمال هذه المرحلة من مراحل العمر، ثم يتأسف لجسمه الذي سيبلىٰ حين يدفن في التراب، وستذهب تلك البهجة وذلك النور والضياء الذي كان يشعّ من الفقيد، فيقول:

لقد عَجِلَتْ عليكَ يدُ المنايَا ... ومَا اسْتَوفَيْتَ حَظَّكَ من صِبَاكَا
فوا أَسَفي لجِسمِكَ كَيفَ يَبلىٰ ... ويذهبُ بعدَ بَهْجَتِهِ سَنَاكَا

وينتقل بنا الشاعر إلىٰ مقطع آخر يعود فيه للحديث عن نفسه ويوجه إليها تُهَم التقاعس وعدم الوفاء، فيقول:

وَمَالي أَدَّعَي أَنِّي وَفِيٌّ ... وَلَسْتُ مُشَاركًا لَكَ في بَلاكَا
تموتُ وما أموتُ عليكَ حُزنًا ... وَحق هَوَاكَ خُنتُكَ في هَوَاكَا

وهنا يتضح لنا أن الشاعر قد وصل إلىٰ مرحلة متقدّمة من الحزن والأسىٰ، حتىٰ إنه لم يعد يثق في نفسه، فهو يدّعي الوفاء للفقيد دون أن يُشاركه في هذا البلاء والمصيبة العظيمة؛ لأنه لو كان صادقًا في دعواه لمات حُزنًا حين موته، بل خانه في هواه ومحبته.

وتبلغ العاطفة ذروتها حين يخبر الشاعر عن خَجَله الشديد عندما يسمع أحداً يقول عنه بأنه محبّ لابنه وفقيده، لأنه لم ينفعه في هذا الخطب الذي أتاه:

وَيَـــا خَجَلـــي إذا قَـــالُوا مُحـــبٌّ ولـــمْ أَنْفَعْـــكَ في خَطْـــبٍ أَتاكَـــا

ثم يبين لنا الشاعر أن كثيرا من الناس حوله قد شاركوه في حزنه وأساه، ووقفوا معه في محنته وبلواه، ولكن شتّان بين بكائه وبكائهم، فليس من يبكي من صادق قلبه كمن يدّعي الحزن ويتباكىٰ، يقول:

أَرَىٰ البـــاكينَ فيـــكَ مَعـــي كَثيـــراً ولـيسَ كمـنْ بَكَـىٰ مـن قـدْ تَبَـاكَىٰ

ويتضح لنا هنا تأثر الشاعر ببيت المتنبي الذي يقول فيه:

إذا اشـــتَبهتْ دُمـــوعٌ في خُـــدودٍ تبـيّن مَـنْ بَكَـىٰ ممّـن تَبَـاكَىٰ [1]

ويختم البهاء زهير هذا المقطع ببيت يمتلئ حسرة وحزنا، فيقول مناديًا ابنه الراحل:

فَيَـا مَـن قَـدْ نَـوَىٰ سَـفَراً بَعيـداً متىٰ قُلْ لي رُجوعكَ من نَوَاكَا؟

وكلمات الشاعر في هذا البيت تدل علىٰ فقدان أمله من ذلك المسافر الذي نوىٰ أن يسافر بعيداً، ويوجه الخطاب إليه ويسائله: متىٰ ستعود من سفرك الطويل؟ ولكن هيهات وهيهات فكل غائب ربما يعود في يوم من الأيام إلىٰ هذه الدنيا إلا غائب

(١) ديوان المتنبي، شرح وتعليق د. يحيىٰ شامي، دار الفكر العربي، ط ١، ١٩٩٧م، ص ٢٠

الموت، كما يقول عبيد بن الأبرص:

وَكُـــلّ ذِي غَيبـــةٍ يَـــؤوبُ وَغَائـــبُ المـــوتِ لا يَـــؤُوبُ [١]

وقبل أن يختم الشاعر مرثيته يدعو للفقيد بالعفو من الله العظيم سبحانه وتعالىٰ، فيدعو له بالرحمة والغفران وأن يجزيه خير الجزاء وأوفاه، ويبين أنه علىٰ يقين وتفاؤل بأن الله سيجزيه خيرا، فيقول:

جَـــزَاكَ اللهُ عنـــي كُـــلّ خيـــرٍ وَأعْلَـــمُ أنّـــهُ عَنَّـــي جَزَاكَـــا

ثم ينادي قبر ابنه الذي أطلق عليه وصف (الحبيب) ولشدة حبه له فهو يتمنىٰ أن يحمل الثرىٰ الذي وارىٰ ذلك الجسد فوق مُقْلتيه، علىٰ الرغم من علمه بمدىٰ الضرر الذي سيلحق العين من الثرىٰ والتراب، ولكن رحمته بابنه وشفقته عليه جعلته يتمنىٰ ذلك ويستسهله ولا شك أن هذا التعبير يبين لنا شدة لوعته علىٰ فراق ولده وعلىٰ شديد محبته إياه:

فَيَـــا قَبْـــرَ الحبيـــبِ وَددتُ أَنّـــي حَمَلْـــتُ ولـــوْ علـــىٰ عَينـــيْ ثَرَاكَـــا

وكعادة الشعراء يختم الشاعر مرثيته فيدعو أن يسقي الغيث قبر ابنه وأن ينزِل عليه المطر هتّانًا ـ والهتّان هو المطر الذي ليس بغزير ولكنه متتابع ـ ويزيد الشاعر علىٰ عادة الشعراء من الدعاء بنزول المطر علىٰ قبر الميت أمراً آخر، فهو يرىٰ أن دموع عينيه كافية لسقيا هذا القبر إن لم ينزل المطر عليه، وهذا دليل علىٰ أن دموع الشاعر قد انهمرت بشدة وغزارة علىٰ فراق ابنه!

سَـــقاكَ الغيـــثُ هَتَّانـــًا وإلاّ فَحَسْـبُكَ مـن دُمُـوعيْ مَـا سَـقاكَا

---

[١] ديوان عبيد بن الأبرص شرح: أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ، ص ٢٢.

ويرسل الشاعر في البيت الأخير من مرثيته السلام علىٰ ذُرىٰ حبيبه وفلذة كبده، سلاماً دائماً كدوام الهواء والنسيم الذي لا ينقطع عن المرور مادامت الحياة، وفي هذا دلالة علىٰ أن الشاعر لن ينسىٰ ابنه وثمرة فؤاده:

وَلا زَالَ السّـــلامُ عَلَيـــكَ مِنِّـــي ... يَـرفّ مـعَ النَّسـيمِ عَلَـىٰ ذُراكَـا

وهكذا يتضح لنا من خلال تطوافنا مع هذه القصيدة أن البهاء زهير عاش معاناة كبيرة بسبب فراق ابنه، وكانت عاطفته جيّاشه وحزنه وأساه واضحين، وهذا ليس بمستغرب لا سيما وأن هذه القصيدة في رثاء ابن رحل صغيراً وترك شاعرنا يعاني مرارة الفقد وأسىٰ الفراق ولوعته، كما يتضح لنا أن القصيدة قد حَوَت عدة أفكار ومعان يمكننا إجمالها في الآتي:

الأولى: لوم الشاعر لنفسه وقلبه علىٰ ما بدر منه من أمور وأحداث كالهوىٰ والصبابة والحب والمعاناة.

الثانية: لوم الشاعر لابنه علىٰ مفارقته إياه ورحيله عنه وتركه وحيداً.

الثالثة: إيمان شاعرنا برحيل ابنه والتماس العذر له.

الرابعة: تمني الشاعر الموت سواء لنفسه أو لعموم الناس بدلاً من ابنه فليس يهمه إلا رجوع ابنه من غربته.

الخامسة: الدعاء لابنه بالسلامة وأن يجزيه الله خير الجزاء وأوفاه وأن يسقي الغيث قبره وغير ذلك من الدعوات التي دعا بها الشاعر لابنه.

وقد امتازت القصيدة بجودة الألفاظ وعذوبتها والدقة في تعبيرها عن المعاني، كما اتسمت بصدق العاطفة وقوتها، ونلاحظ أيضاً السهولة والوضوح والبعد عن التكلف سواء في اللفظ والتركيب أو الصور والأساليب، وقد أجاد في اختياره نظم قصيدته علىٰ البحر الوافر؛ لأنه من البحور المناسبة للبوح بالمشاعر والعواطف، أضف إلىٰ ذلك اختياره للقافية الممتدة مع كاف المخاطب مما أعطىٰ القافية جرساً موسيقياً ممتداً ومناسباً للموضوع والغرض.

المطلب الثاني: رثاء الأخ.

لا يخفىٰ ما للأخ من مكانة كبيرة ومنزلة عظيمة، فالأخ هو الساعد الأيمن لأخيه، وهو الذي يقف معه عند الحاجة، ومن ليس له إخوة فهو كالذاهب إلىٰ ساح المعركة بلا سلاح، كما قال الشاعر [١]:

أَخَاكَ أَخَاكَ إنَّ مَنْ لا أَخَا لَهُ كَسَاعٍ إلىٰ الهَيْجَا بِغيرِ سِلاحِ

ونظراً لأهمية الأخ في حياة أخيه فإنّ فقده من الصعوبة بمكان، وقد كثرت قصائد رثاء الإخوة في الشعر العربي، ومن أشهر ما قيل في ذلك ما قالته الخنساء في رثاء أخيها صخر، تقول في إحدىٰ مرثياتها: [٢]

أَعَينَيَ جُودا ولا تَجمُدَا أَلا تَبْكِيانِ لِصَخْرِ النَّدىٰ
أَلا تَبْكِيانِ الجريء الجميلَ أَلا تَبْكِيانِ الفَتىٰ السَّيِّدا

وتقول في قصيدة أخرىٰ: [٣]

وإنَّ صَخراً لحَامِينَا وسَيّدنَا وإنَّ صَخْراً إذا نَشْتُو لنَحَّارُ
حمَّالُ أَلويةٍ، هَبّاطُ أوديةٍ شهّادُ أنديةٍ للجيشِ جَرّارُ
كَأنَّ عَيْنيَ لِذِكْرَاهُ إذا خَطَرتْ فَيْضٌ يَسيلُ علىٰ الخدينِ مِدْرَارُ

ومن أشهر القصائد التي رثىٰ فيها الشعراء إخوتهم ما قاله دُريد بن الصمة في

---

(١) ديوان مسكين الدارمي، تحقيق: عبد الله الجبوري وخليل العطية، ط، ١ دار البصري، بغداد، ١٣٨٩هـ، ص ٢٩.

(٢) ديوان الخنساء شرحه أبو العباس ثعلب، تحقيق: د. أنور أبو سويلم، ط ١، دار عمار، ١٤٠٩هـ، ص ١٤٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٧٨.

أخيه عبد الله [١]

تَنَادَوا فقالُوا أَرْدَتِ الخَيلُ فَارِسًا ... فَقَلْتُ أعبدُ اللهِ ذَلِكُمُ الرّدي
وإنْ يَكُ عبدُ اللهِ خَلّىٰ مَكَانَهُ ... فَمَا كَانَ وقّافًا ولا طَائِشَ اليَدِ
كَمِيشُ الإِزارِ خَارِجٌ نِصْفُ سَاقِهِ ... صَبُورٌ علىٰ الضَرّاءِ طَلّاعُ أَنجُدِ

ولشاعرنا بهاء الدين زهير قصيدة واحدة في رثاء الأخ وهي القصيدة التي يرثي فيها أخًا له يدعىٰ عليًّا، حيث يقول في مطلعها:

يَعزّ عليّ فَقْدُكَ يا عَليّ ... ألا للهِ ذا الأَجَلُ الوَحِيُّ
تكَدّرَ فيكَ صَافي العَيشِ لما ... عَدِمتُكَ أيّها الخِلُّ الصَّفيُّ
لَئِنْ أخلَيْتُ منكَ مَحلّ أُنسِي ... فَمَا أنا فِيكَ مِنْ أَسِفٍ خَلِيُّ

يبدأ الشاعر مرثيته بهذه اللفظة (يعزّ) للدلالة علىٰ أن هذا الأخ كان عزيزاً عليه ذا حظوة عنده، فَصَعُبَ عليه فراقه واشتدّ، وقد جاءه الأجل سريعًا ولم يمهله طويلاً، لكنه يرجع هذا الأمر الجلل إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ؛ لأنه الذي يبتلي من يشاء من عباده بما يشاء، وهو مقدّر الآجال، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [٢]

ويخبر أنّ العيش أصبح متكدّراً بعدما فَقَدَ خِلّه وصفيّه، وقد استعمل الشاعر في هذا البيت لفظة (الخلّ) التي تعني الصديق الوفيّ، للدلالة علىٰ مكانة هذا الأخ في قلبه، وأنه لم يكن أخًا في النسب فحسب، بل كان أخًا وخلاً وفيًا.

---

[١] الأصمعيات، عبد الملك قريب الأصمعي، تحقيق: أحمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، ط ٧، ١٩٩٣م، ص ١٠٨.

[٢] سورة النحل، الآية ٦١.

وفي قوله:

لـئن أَخْليـتُ مِنْـكَ محَـلّ أُنسـي فَمَـا أنـا فِيـكَ مـن أَسَـفٍ خَلِـيُّ

يذكر الشاعر أن أخاه لم يفارقه حتىٰ بعد وفاته، فهو وإن فَقَدَ مجالسته والأنس به فهو لم يفقد الأسف والحزن عليه، فلا يزال حاضراً في مخيلته، ماثلاً أمامه.

ويتحدث الشاعر عن حزنه الشديد بعد موت أخيه، حيث استوىٰ عنده الفرح والحزن، فليس هناك شيء يستحق الفرح ولا شيء يستحق الحزن بعد موته:

فَبَعـدَكَ لَـيسَ يُفرِحُنـي بَشـيرٌ وَبَعْـدَكَ لـيسَ يُحزنني نَعِـيُّ

وفي المقطع الآتي من القصيدة يتحدث الشاعر عن نفسه وعن الموت فيقول:

ولـو كـانَ الـرّدىٰ بَشَـراً سَـوِيّا لهَابَـكَ أَيُّهَـا البَشَـرُ السَّـويُّ
عَصَـاني الصّـبرُ بَعـدَكَ وَهْـوَ طـوْعي وَطَـاوعَ بَعْـدَكَ الـدَّمعُ العَصِـيُّ
وَهَـلْ أَبْقَـتْ لـي الأيـامُ دَمْعَـاً فيُسْـعِدَني بـهِ الجَفْـنُ الشَّـقيُّ
فَيَـا جَزَعـي تَعَـزَّ فَلـيسَ صَـبرٌ وَيَـا ظَمـإي تَسَـلّ فلَـيسَ رِيُّ
أَتِمْضِـي أَنْـتَ مُنفـرداً وَأَبقَـىٰ لَقَـدْ غَـدَرَتكَ نَفسُـكَ يَـا وَفِيُّ

يتحدث الشاعر عن الموت، وأنه لو كان بشراً سويّاً لهاب أخاه؛ لأن أخاه كان رجلاً شُجاعاً مُهاباً لا يقوىٰ علىٰ مواجهته أحد من البشر، وأتىٰ الشاعر بالتركيب (بشراً سوياً) متأثراً بالآية الكريمة: ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾[1].

ويخبر الشاعر أن الصبر عصاه بعد موت أخيه وقد كان طيّعاً له من قبل، ولكن الدمع أسعفه وأسعده في هذه اللحظات وقد كان عصياً عليه من قبل، وهنا مفارقة عجيبة فالصبر الذي كان طيّعا أصبح عصيّا، والدمع الذي كان عصيّا أصبح طائعا!

(١) سورة مريم، الآية ١٧.

وهذا لشدة الفاجعة التي فجع بها الشاعر من موت أخيه وساعده الأيمن، ثم يعود ويتساءل بقوله: (وهل أبقت لي الأيام دمعًا؟) يريد أن الأيام وما لاقاه في طيّاتها من مصاعب ومصائب لم تُبق له دمعا، حتىٰ يسعده به الجفن الذي أطلق عليه وصف (الشَّقي).

وفي هذا المقطع نجد أن الشاعر نظراً لشدة فقده لأخيه يتساءل ويستفهم وينادي حيث ينادي جزعه بقوله (يا جزعي) ويطلب منه تحلّي العزة؛ لأنه لا يوجد هناك صبر، كما ينادي ظمأه بقوله (يا ظمأي) ويطلب منه السلوّ؛ لأنه لا يوجد هنا رِيّ، ثم يستفهم بقوله (أتمضي) للسؤال عن حالة أخيه هل سيمضي منفرداً، ويتركه لوحده ولا يرافقه، وفي الشطر الأخير يلتمس لأخيه العذر ويخبر أن نَفْسَ أخيه حين ارتحلتْ قد غَدَرت بأخيه وأخذته علىٰ غرّة، وإلا فهو شخصٌ وفيّ لا يمكن أن يغدر بأخيه ويغادره!

وفي المقطع الآتي يتحدث الشاعر عن نفسه (زهير) وعن أخيه المتوفىٰ (علي):

فهَـــل حَـــقٌّ حَيَاتـــكَ يـــا زُهيـــرُ ... وهَـــلْ حَـــقٌّ وَفاتُـــكَ يـــا عَلـــيُّ
وَحَقّـــًا صَـــارَ ذاكَ البَحـــرُ يَبْســـًا ... وَصَـــوّحَ ذلـــكَ الـــرّوضُ البَهِـــيُّ
وَأقْلَـــعَ ذلـــكَ الغَيـــثُ المُرَجّـــىٰ ... فَـــلا الوَسْـــمِيُّ مِنْـــهُ ولا الـــوَلِيُّ
لَقَـــدْ طَـــوَتِ الحَـــوادِثُ مِنْـــهُ جِسْـــمًا ... وَلَـــيسَ لِـــذِكْرِهِ في النَّـــاسِ طَـــيُّ

فشاعرنا لم يستوعب ما حدث وكأنه لا يصدِّق به، فيقول مندهشًا مستفهمًا: هل الذي حصل حقيقة؟ أم حُلُمٌ وخَيَال؟ وهل حياته حقيقيه بعد وفاة أخيه؟ وهل مات أخاه عليًا أم أنه لا زال حيًا؟ وهل حقًا صار ذلك البحر يابسًا؟ والروض البهيّ جافًا؟ ويقصد أخاه عليًّا؛ لما تميّز به من الكرم والسخاء، والبذل والعطاء، كما يبدي الشاعر دهشته وعدم تصديقه لذهاب ومغادرة ذلك الغيث الذي كان

يرتجيه الناس ويستبشرون به! حيث لم ينزل لا الوسمي الذي كان مُعتاداً أن ينزل في أول الربيع، ولا الولي الذي يليه وينزل في آخر الربيع، ويتضح تأثر الشاعر عندما شبه أخاه بالغيث ببيت مهلل بن ربيعة في بكاء أخيه كليب:

سَقَاكَ الغَيثُ إِنكَ كُنتَ غَيثًا ... ويُسراً حِينَ يُلتمسُ اليَسَارُ [1]

ومن الملاحظ في البيت الأول والثاني تكرار لفظة (حقّ) ثلاث مرات، مما يدل علىٰ هول ما أصاب الشاعر الذي لم يصدق ما حدث وهل كان حقًا ذلك الأمر؟

ثم ينتقل إلىٰ ذكر مناقب الميت وبعض أخلاقه وخلاله، ومنها ذِكره الحسن بين الناس حيث إن الحوادث قد طوت منه جسمًا وشخصًا فقط، ولكن ذكره لم يُطوَ فهو باق منتشر بين الناس، كما قال الآخر:

قَدْ مَاتَ قومٌ ومَا مَاتتْ مَكَارِمُهمْ ... وَعَاشَ قومٌ وهمُ في النَّاسِ أَمْواتُ [2]

وفي المقطع الأخير من القصيدة يواصل الشاعر الحديث عن صفات الراحل وأخلاقه ومناقبه وما حصل حين مضوا بنعشه إلىٰ قبره، فيقول:

مَضَوْا بسَريرِهِ وَعَلَيْهِ نُورٌ ... جَلِيٌّ تَحْتَهُ سِرٌّ خَفِيُّ

وفي أكْفانِهِ نَدْبٌ سَرِيٌّ ... تَخَلّفَ بَعدَهُ ذِكْرٌ سَنِيُّ

عَلَىٰ حِينَ استَفاضَ الذّكرُ عَنْهُ ... وحِينَ أتىٰ كَمَا اندفعَ الأَتيّ

فقد ظهر النور علىٰ سرير موته، وهو نورٌ واضحٌ وجَلَيٌّ مُشاهد، وهذا كناية عن مكانة أخيه وحسن صفاته وخِلاله وشدة محبة الناس له، مما جعل نعشه كأنه يشعّ بالنور والضياء، وفي قوله بالبيت الثاني (وفي أكفانه..) قدّم الشاعر الخبر الجار

---

(١) ديوان مهلل بن ربيعة شرح وتقديم: طلال حرب، الدار العالمية، ص ٣٢.

(٢) ديوان الإمام الشافعي، ص ٥١.

والمجرور علىٰ المبتدأ؛ لما في تقديم الخبر من الاختصاص، حيث أخبر أن في أكفان الميت ذِكرٌ حسنٌ، وقد أعقب هذه الأخلاق الحسنة ذِكرٌ طيب منتشرٌ بين الناس، فاستفاض الذكر الجميل عنه، وكُثر الثناء عليه، وكأن شاعرنا بذلك يقول بأن الناس شهداء الله في أرضه.

ويختم الشاعر مرثيته بهذين البيتين وفيهما يذكّرنا مرة أخرىٰ ببعض أخلاقه الحسنة وصفاته النبيلة:

وَكَـــمْ دَرّتْ مَكَارمُـــهُ لِعَـــافٍ ... كَمَـــا دَرّتْ لأطفـــالٍ ثِـــدِيُّ

وَكَـــمْ أَرْوَىٰ علـــىٰ ظَمَـــإٍ نَـــدَاهُ ... سَـــقَاهُ هَاطِـــلُ الغَيـــثِ الـــرَّوِيُّ

وهنا نجد أن شاعرنا قد استعمل (كم) الخبرية مرتين؛ للدلالة علىٰ كثرة مكارم الفقيد علىٰ العُفاة والسائلين ويشبّه كرمه الذي يدرُّ علىٰ سائليه بِدَرِّ ثدي الأمهات علىٰ أطفالهن، فهو كرمٌ بلا مقابل وعطاء بلا حدود، ويزيد الشاعر في بيان كرم الفقيد وعطائه، فكم أَرْوىٰ بكرمه وجوده الظمأىٰ الذين كانوا عِطاشاً فسقاهم من نهر جوده وبحر كرمه.

وكعادة الشعراء في ختم أبيات الرثاء يدعو الشاعر ربه عز وجل في الشطر الأخير من القصيدة أن يسقي قبر الميت بالغيث الهاطل الروي، وهو المطر الغزير الذي يرتوي منه قبر الفقيد، وتجدر الإشارة هنا إلىٰ لطيفة، وهي أن الشاعر عندما دعا لأخيه بنزول الغيث علىٰ قبره دعا بأن يكون هاطلا غزيراً، بينما نجده عند دعائه بنزول الغيث علىٰ قبر ابنه الصغير في القصيدة التي وردت معنا سابقا يدعو بأن يكون هتّانا وهو المطر الخفيف المتتابع، فنجده يدعو لكل منهما بما يتناسب مع عمره كبراً وصغراً، وهذا مؤشر علىٰ أن الشاعر قد اختار ألفاظه بدقة.

ونخلص من كل ما سبق من أبيات قوة العاطفة لدىٰ الشاعر وصدق تجربته،

وتفانيه الشديد في بيان وإثبات حبه لأخيه، وإن كان قد تكلّف في مطلع قصيدته عندما قال:

يَعــزّ علــيّ فَقــدكَ يــا علــيُّ ... ألا للهِ ذا الأَجــــلُ الــــوَحِيُّ

لمجاراة الحشو بالضرب أو ما يسمىٰ في العروض بالمقفىٰ [1]

كما أن الشاعر اختار النظم علىٰ بحرٍ مناسبٍ لبثّ العواطف الجياشة ويناسب غرض الرثاء، من حيث موسيقاه وتفعيلاته، فأتت القصيدة علىٰ البحر الوافر، وقد استعمله كذلك في مرثيته لابنه كما أسلفنا، ومن الواضح كذلك في هذه المرثية أن الشاعر عمد إلىٰ تكرار بعض الألفاظ أو الحروف، وقد سبقت الإشارة إلىٰ شيء من ذلك أثناء استعراض النص، وسيرد مفصلا إن شاء الله في مبحث الملامح الفنية.

(١) وهو البيت الذي وافق عروضه ضربه في الوزن والروي دون لجوء إلىٰ تغيير في العروض. ينظر: الكافي في العروض والقافية، للخطيب التبريزي، تحقيق: الحساني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣، ١٩٩م، ص ٢٠.

المبحث الثاني

الملامح الفنية لرثاء الأقارب في شعر البهاء زهير

لا يمكن وصف أي نصّ بالإبداع والجودة إلا وتكون الصور الفنية والجماليات اللفظية والمعنوية فيه حاضرة، وهذا ما أشار إليها كثير من النقاد القدامىٰ ومنهم الجاحظ الذي قال: " إنما الشعر صياغة وضرب من النسج وجنس من التصوير"[١].

وقد برزت في مرثيات البهاء زهير لأقاربه بعض الجماليات وبعض الظواهر الفنية التي أسهمت في جودة تلك النصوص وثرائها، فنجد ظاهرة التكرار من أبرز الملامح الفنية في مرثياته لأقاربه، كذلك التشبيه والطباق والتناص وبعض الأساليب الإنشائية من أمر ونداء واستفهام وغيرها، وتفصيل ذلك علىٰ النحو الآتي:

أولا: ظاهرة التكرار.

التكرار هو الترديد، يقال كرّرت عليه الحديث إذا ردّيته مرة بعد مرة، ويقول ابن جني: إن العرب إذا أرادت المعنىٰ مكّنته واحتاطت له، فمن ذلك التوكيد، وهو علىٰ ضربين: أحدهما تكرير الأول بلفظه، وأما الضرب الثاني: فهو تكرار الأول بمعناه[٢].

وقد أشار بعض النقاد المحدثين كعز الدين السيّد إلىٰ التكرار حيث يقول: هو أسلوب تعبيري يصوّر انفعال النفس بمثير، واللفظ المكرر فيه المفتاح الذي ينشر الضوء علىٰ الصورة لاتصاله الوثيق بالوجدان[٣]

---

(١) الحيوان، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٨٩هـ، ٣/ ١٣٢.

(٢) الخصائص، ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٩٠م، ٣/ ١٠١.

(٣) التكرير بين المثير والتأثير، عز الدين السيد، بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٦ ط ٢، ص ٣٦

والتكرار يعد ظاهرة بارزة في شعر شاعرنا، وتكرار الشاعر "للفظةٍ ما أو عبارةٍ ما يوحي بشكل أولي بسيطرة هذا العنصر المكرر وإلحاحه علىٰ فكر الشاعر أو شعوره أو لا شعوره"[1]

ولا شك أن الشاعر عندما يستعمل هذا الأسلوب فإن ذلك يكون لدواع نفسية وبواعث فكرية متنوعة تدفعه إليه، ومن أبرز أساليب التكرار في مرثيات الشاعر ما يأتي:

أ. تكرار الضمير:

عمد الشاعر في مراثيه إلىٰ تكرار بعض الضمائر، ومن أمثلته قوله:

نَهَاكَ عن الغِوايةِ مَا نَهَاكَا ... وَذُقتَ من الصَّبابةِ مَا كَفَاكَا
وَطَالَ سُراكَ في ليلِ التَّصابي ... وقد أَصْبَحتَ لم تحمدْ سُراكَا
فَلا تجزعْ لحادثةِ الليالي ... وَقُل لي إنْ جَزِعْتَ فَمَا عَسَاكَا
وكيفَ تَلومُ حَادثةً وفيهَا ... تَبيّنَ مَنْ أَحَبَّكَ أو قَلَاكَا

تعلو في هذا المقطع النبرة الخطابية حيث كرّر الشاعر كاف المخاطب، وقد شخّص من نفسه مخاطبًا آخر، وكأنه يخاطب ويعاتب شخصًا آخر عندما يقول (نهاك، نهاكا، كفاكا، سراكا، عساكا، أحبك، قلاكا) وكل هذه الخطابات التي يخاطب الشاعر بها نفسه تدل علىٰ شدة حسرته وأساه علىٰ ما بدر منه سابقًا، وفيها أيضا تذكّرٌ للحالة التي كان عليها فقد كان كالغافل بالحياة وملذاتها عن المصائب والمصاعب التي تأتي بغتة وتحلّ فجأة، وكأنه يقول إن تلك الغفلة مما يزيد

(1) عن بناء القصيدة العربية الحديثة، د. علي عشري زايد، مكتبة سينا، القاهرة، ط ٤، ١٤٢٣هـ، ص ٥٨.

المصائب إذا حدثت شدّة وقوّة.

ومن تكرار الضمير ما جاء في نفس النص وهو قوله:

بِروحـيْ مَـنْ تَـذوبُ عليـهِ رُوحـي ... وَذُقْ يَـا قَلْـبُ مَـا صَـنَعتْ يَـداكَا
لَعَمْـري كُنـتَ عـن هَـذا غَنِيًّـا ... ولـم تعـرفْ ضَـلالَكَ مـن هُـداكَا
ضَـنيتُ مـن الهـوىٰ وَشَـقِيتُ مِنْـهُ ... وَأَنْـتَ تُجيـبُ كـلّ هـوىً دَعَاكَـا
فَـدعْ يَـا قَلْـبُ مَـا قـدْ كُنـتَ فيـهِ ... أَلَسـتَ تَـرىٰ حَبيبـكَ قـد جَفَاكَـا
لقـدْ بَلَغَـتْ بـهِ رُوحـي التَّراقـي ... وقـد نَظَـرتْ بـهِ عَيْنِـي الهلاكَـا

استعمل الشاعر في هذا المقطع ضمير المتكلم (روحي، لعمري، ضنيت، شقيت، روحي، عيني) وهنا يخاطب الشاعر نفسه ويوجه لها الخطاب بشكل مباشر، فلزاما أن يستعمل هذا الضمير الذي يشير فيه إلىٰ نفسه ويحمّلها كل هذه التبعات والحوادث بأسلوب صريح مباشر.

ومن أمثلة تكرار الضمير المخاطب قوله في رثاء أخيه علي:

يَعَـزُّ عَلَـيَّ فَقْـدكَ يَـا علـيُّ ... ألا للهِ ذا الأَجَـل الـوَحِيُّ
تَكـدَّرَ فيـكَ صـافي العـيشِ لمـا ... عَـدِمْتُكَ أيهـا الخـلّ الـوفيُّ
لَـئِنْ أَخْليـتُ مِنْـكَ محـلّ أُنْسـي ... فَمَـا أنـا فيـكَ مـن أَسَـفٍ خَلِـيُّ
فَبَعْـدَكَ لـيسَ يُفرحنـي بَشـيرٌ ... وبَعَـدكَ لـيسَ يُحزننـي نَعِـيُّ

استعمل الشاعر في هذا المقطع ضمير المخاطب (فقدك، فيك، عدمتك، منك، فيك، فبعدك) فقد نزّل الغائب منزلة الحاضر، فالميت حاضر في قلبه وشعوره، فهو يخاطبه بكاف الخطاب مما يدل علىٰ مكانة أخيه وحظوته عنده كما تظهر في استعماله هذا الأسلوب عاطفته الصادقة تجاهه.

وتكرار الضمائر سمة بارزة في نصوص الرثاء لدىٰ شاعرنا فنجده يخاطب نفسه

أحيانا ويجسّد منها مخاطَبًا يوجه إليه لومًا أو عتابًا أو نصيحة أو غير ذلك، وتارة يخاطِب الشخص المرثي سواء كان ابنه أو أخاه، وتكرار الضمائر في قصائد الرثاء أمر طبيعي ووارد، بل ويتوقع من الشاعر الإكثار منه خاصة إذا كان المرثي ابنًا أو أخًا أو ممن له قرابة شديدة وذلك لدواع نفسية متنوعة تجعل الشاعر يكرر الخطاب مرة تلو أخرىٰ.

ب- تكرار اللفظ:

من أبرز الأساليب التي استعملها الشاعر في مراثيه ظاهرة تكرار الألفاظ سواء كان تكرار لألفاظ بعينها أو ببعض اشتقاقاتها، ومن أمثلة ذلك قوله:

بِروحِي مَنْ تَذُوبُ عَلَيهِ رُوحي ... وذُقْ يَا قَلْبُ مَا صَنَعتْ يَداكَا
فَيَا مَنْ غَابَ عني وَهوَ رُوحي ... وَكَيْفَ أُطيقُ مِنْ رُوحي انفِكَاكَا
أَرَىٰ البَاكينَ فيكَ مَعي كَثيراً ... ولَيسَ كمنْ بَكَىٰ مَنْ قَدْ تَبَاكَىٰ
لقَدْ بَلَغَتْ بِهِ رُوحي التَّراقي ... وقد نَظَرتْ بِهِ عَيْنِي الهلاكَا
تَمُوتُ وَمَا أَمُوتُ عَليكَ حُزناً ... وَحَقّ هَوَاكَ خُنتكَ في هَوَاكَا
جَزَاكَ اللهُ عني كُلّ خيرٍ ... وَأعْلَمُ أَنّهُ عَنّي جَزَاكَا
سَقاكَ الغيثُ هَتَّاناً وإلاّ ... فَحَسْبُكَ من دُمُوعيْ مَا سَقاكَا

سمة التكرار واضحة في الأبيات السابقة، فقد كرر الشاعر كلمة (روحي) خمس مرات، وتكرار هذه اللفظة يدل علىٰ أن الشاعر قد بلغ من الحزن مبلغا عظيما، فتارة يريد أن تكون روحه فداء لابنه، وتارة يأتي بها في سياق يدل علىٰ أن روحه قد ذابت كمداً وحزنا، وتارة نجده يصف ابنه بأنه روحه التي بين جنبيه ولا يستطع الانفكاك عنها ولا أن يحيىٰ بدونها!

كما نلاحظ تكرار بعض الألفاظ واشتقاقاتها كلفظة البكاء (الباكين، بكىٰ،

تباكىٰ) كما نجد التكرار في قوله (به) وقوله (تموت) و(هواك) و(جزاك) و(سقاك) وتكرار هذه الألفاظ يدل علىٰ حجم المصيبة التي أصيب بها الشاعر ونفسيته التي تعاني من الفاجعة، كما أن هذا التكرار يجعل المتلقي يعيش مع الشاعر في مأساته ويشاطره حزنه وأساه، ولا شك أنه أعطىٰ الأبيات إيقاعًا جميلاً ونغما موسيقيًا رائعًا.

ومما جاء فيه التكرار قوله:

وَلَـــو كَـــانَ الـــرَّدَىٰ بَشَـــراً سَـــويّـًا ... لَهَابَـــكَ أيهـــا البَشَـــرُ السَّـــويُّ

عَصَـاني الصَّـبر بَعْـدَكَ وهـوَ طَـوْعِي ... وَطَـــاوعَ بَعْـــدَكَ الجَفْـــنُ الشّـــقيُّ

فنلاحظ أن الشاعر قد كرّر الألفاظ الآتية (بشرا، البشر، سويًا، السّوي، طَوْعي، طاوَع، بعدك، عصاني، العصي) وهذا التكرار لم يأت عرضًا، وإنما لهدف أراده الشاعر، وهو التأكيد علىٰ حُزنه المتأصل في نفسه وتقرير ذلك الحزن لدىٰ المتلقي.

ومن أمثلة تكرار اللفظ ما جاء في قوله:

فَهَـــلْ حَـــقٌّ حَياتـــكَ يـــا زُهيـــرٌ ... وَهَـــلْ حَـــقٌّ وَفَاتـــكَ يـــا عَلـــيُّ

وَحَقًّـــا صَـــارَ ذاكَ البَحـــرُ يَبْسَـــا ... وصـــوّحَ ذلـــكَ الـــرَّوضُ البَهِـــيُّ

وَأَقْلَـــعَ ذلـــكَ الغيـــث المرجّـــىٰ ... فـــلا الوَسْـــمِيُّ مِنْـــهُ ولا الـــوَليُّ

لقـدْ طَـوَتِ الحَـوادثُ مِنْـهُ جِسْـمًا ... وَلـــيسَ لِـــذِكْرِهِ فِي النَّـــاسِ طَـــيُّ

فقد كرر الشاعر هذه الألفاظ (هل، حق، طوت، ذلك) وبعضها أكثر من مرة للتأكيد عليها، فقد كرّر الاستفهام (هل) في مطلع النص لاستغرابه فيما حدث ودهشته منه، كما أنه كرّر لفظة (حَقًّا) لأنه لم يصدّق بما حدث، كما كرّر اسم الإشارة (ذلك) للدلالة علىٰ الشيء البعيد، لأن الموقف يتطلّب منه هذا التكرار؛ لأبعاد انفعالية ودوافع نفسية لدىٰ الشاعر.

ومن أمثلة تكرار اللفظ قوله في هذه المرثية:

وَفِي أَكْفَانِـــهِ نَـــدْبٌ سَـــرِيٌّ تَخَلَّـــفَ بَعْـــدَهُ ذِكْـــرٌ سَـــنِيُّ
علـىٰ حِـينَ اسـتَفَاضَ الـذِّكْرُ عَنْـهُ وحـينَ أَتَـىٰ كَمَـا انـدَفَعَ الأَتِـيُّ
وَكَـــمْ دَرّتْ مَكَارمـــهُ لِعَـــافٍ كمـــا درّتْ لِأَطْفَـــالٍ ثِـــدِيُّ
وكـــمْ أَرْوَىٰ عَلَـــىٰ ظَمَـــأٍ نَـــدَاهُ سَـــقَاهُ هَاطِـــلُ الغيـــثِ الـــرَّوِيُّ

جاء تكرار بعض الألفاظ في هذه الأبيات ومنها (ذكر، حين، كم، درّت) ولعل تكرار هذه الألفاظ بعينها يرجع إلىٰ نفسية الشاعر الحزينة، فذكر حبيبه يتكرر في ذهنه كثيراً في هذه الظروف الحرجة، كما نجده يكرر اسم الاستفهام (كم) الدال علىٰ التكثير؛ لكثرة وتكرر مكارم الميت التي وصلت إلىٰ جميع العُفاة وطالبي العطاء وللتأكيد علىٰ تلك المعاني في ذهن القارئ.

وهكذا يتضح لنا مما سبق أن ظاهرة التكرار بنوعيها التي ذكرنا ـ تكرار الضمائر وتكرار الألفاظ ـ قد كثرت لدىٰ الشاعر وبرزت لديه ولعل مرد ذلك إلىٰ الحاجة لاستعمال هذا الأسلوب في مرثياته لدواع نفسية وعاطفية أدت به إلىٰ سلوك هذا السبيل والإكثار منه.

ثانيا: الأساليب الإنشائية:

من المعروف في البلاغة أن أسلوب الإنشاء ينقسم إلىٰ طلبي وغير طلبي، فالإنشاء غير الطلبي هو مجموعة من الأساليب التي لا يطلب من خلالها شيئا غير موجود وقت الطلب ومن أنواعه المدح والذم والقسم والرجاء وغيرها، أما الإنشاء الطلبي فهو ما يستدعي مطلوبًا غير حاصلٍ في اعتقاد المتكلم وقت الطلب، وأنواعه خمسة، الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والنداء[1]، وفي هذا المطلب سأقتصر علىٰ الحديث عن بعض أساليب الإنشاء الطلبي وهي: الأمر، والاستفهام، والنداء؛

(١) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، لأحمد الهاشمي، ضبط وتدقيق د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، ص ٧٠.

لكثرة استعمال الشاعر لها ولأنها تمثل ظاهرة فنية بارزة في مرثيات الشاعر، وهي على النحو الآتي:

الأمر: وهو طلب حصول الفعل من المخاطب على وجه الاستعلاء[1]، وقد يخرج الأمر عن معناه الحقيقي إلى معان أخرى كالدعاء، والتمني، والالتماس، والتحقير وغيرها، وسأذكر هنا بعض الشواهد على هذا الأسلوب، يقول الشاعر في إحدى مراثيه مستخدمًا فعل الأمر:

فَـــلا تَجْـــزَعْ لِحَادثـــةِ اللَّيَـــالي وَقُـلْ لـيْ إنْ جَزِعْـتَ فَمَـا عَسَـاكَا

استخدم الشاعر فعل الأمر (قُل) مخاطبًا نفسه وذاته لائما لها على ما حصل من الجزع وعدم الصبر، والأمر هنا خرج عن معناه الحقيقي، فهو لا يطلب من نفسه أن تقول له شيئًا عن فائدة الجزع ونتيجته، ولكن الأمر هنا خرج إلى معنى اللوم والعتاب لنفسه، أو للتمني، فهو يتمنّى من نفسه أن تَدَع الجَزَع وتلتزم الصبر، والنكت البلاغية لا تتزاحم، فيمكن أن يخرج الأمر هنا لأكثر من معنى وأكثر من نكتة بلاغية.

ومن أمثلة استخدامه لفعل الأمر قوله:

بِروحِـي مَـنْ تَـذُوبُ عَلَيـهِ رُوحـي وذُقْ يَـا قَلْـبُ مَـا صَـنَعتْ يَـداكَا

يخاطب الشاعر قلبه ويأمره بأن يذوق ما صنعته يداه، ولفظة (ذُقْ) من الكلمات التي تدل على معنى التهكم والسخرية، كأنه يتندّر عليه وأنّ عليه أنْ يذوق ما اجترحت يداه، وذلك على سبيل المجاز.

---

[1] جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، لأحمد الهاشمي، ضبط وتدقيق د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت ، ص ٧١.

ومن الأمر قوله:

فَـدَعْ يَـا قَلْـبُ مَـا قَـدْ كُنـتَ فِيـهِ أَلَسْـتَ تَـرىٰ حَبيبـكَ قَـدْ جَفَاكَـا

فقد استخدم الشاعر فعل الأمر (فدع) ويطلب من قلبه أن يترك ما كان فيه، لأنه قد أتاه ما يشغله عما كان فيه من اللهو والغفلة والتصابي.

ومن الأمر قوله في رثاء ابنه:

فَيَـا مَـنْ قَـدْ نَـوَىٰ سَـفَراً بَعيـداً متىٰ قُـلْ لـي رُجوعـكَ مِـنْ نَواكَـا

استعمل الشاعر أسلوب الإنشاء وخاطب ابنه قائلا (قل) مقترنا بأداة الاستفهام متىٰ؛ لأنه في معرض الاستفسار عن وقت رجوع ابنه الميت من هذا السفر البعيد واستبطاءه لرجوعه ويأسه منه.

الاستفهام: وأسلوب الاستفهام من الأساليب الإنشائية التي كثرت نسبيًا في مرثيات الشاعر، ويرىٰ القزويني بأن الألفاظ الموضوعة له: الهمزة وهل وما ومن وأي وكم وكيف وأين وأنىٰ ومتىٰ وأيان، وللاستفهام معان بلاغية يخرج إليها منها: الاستبطاء، التعجب، التنبيه، الأمر، التقرير، وغيرها من المعاني[1] ومن أمثلته قوله في رثاء ابنه:

وَكَيْـفَ تَلُـومُ حَادثَـةً وَفِيهَـا تَبَـيّنَ مَـنْ أَحَبّـكَ أو قَلاكَـا؟

فقد استعمل الشاعر أسلوب الاستفهام وأتىٰ بالأداة (كيف) التي تأتي للسؤال عن الحال، ولكنه هنا خرج عن معناه الحقيقي إلىٰ معنىٰ الاستنكار والتعجّب، فهو يُنكر علىٰ نفسه ويتعجب منها كيف تلوم وتذم هذه الحادثة التي كشفت له محبيه من معاديه؟

---

[1] ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني ٣/ ٥٥.

ومن أمثلته كذلك قوله:

فَـدَعْ يَـا قَلْـبُ مَـا قَـدْ كُنـتَ فيـهِ أَلَسْـتَ تَـرَىٰ حَبيبـكَ قَـدْ جَفَاكَـا؟

استعمل الشاعر في هذا البيت أسلوب الاستفهام بالهمزة التي يراد بها التصديق أو التصوّر وقد دخلت علىٰ الفاعل؛ لأن الشك في الفاعل وليس في الفعل، فالشاعر يستفسر ويستفهم من قلبه علىٰ طريقة التشكيك.

ويبدو أن الشاعر في حيرة شديدة فتتوالىٰ منه الاستفهامات في هذه القصيدة حيث يقول:

فيـا مَـنْ غـابَ عنـي وَهـوَ رُوحـي وَكَيـفَ أُطِيـقُ مِـنْ رُوحـي انفِكاكَـا؟
حَبيبـيْ كَيـفَ حَتَّـىٰ غِبْـتَ عَنّـي؟ أَتَعْلَـمُ أنّ لـيْ أحَـداً سِـوَاكَا؟

استعمل الشاعر في البيت الأول أسلوب الاستفهام (كيف) للسؤال عن حاله في هذه المصيبة العظيمة التي حلّت به، فالميت بمثابة روحه ولا يمكن انفكاك الروح من صاحبها، ثم إنه يستعمل في البيت الثاني نفس الأسلوب السابق، مع أسلوب استفهام ثان وهو الهمزة في قوله (أتعلم) التي تدل علىٰ التصديق والتصور مع شيء من التشكيك في الفعل لا الفاعل، إذ أنه يسأل الميت بعلمه أن لا أحد سواه يحل محله.

ومن الشواهد علىٰ الاستفهام قوله:

فَكَيـفَ تَغَيَّـرتْ تِلْـكَ السَّـجَايَا؟ وَمَـنْ هَـذا الـذيْ عَنِّـي ثَنَاكَـا؟

وقوله:

فَـوَا أَسَـفًا لِجِسْـمِك كَيـفَ يَبْلَـىٰ؟ وَيَـذهَبُ بَعْـدَ بَهْجَتِـهِ سَـنَاكَا

والاستفهام في هذين البيتين إنكاري توبيخي؛ لأنه بمعنىٰ ما كان ينبغي أن يكون،

فكأن الشاعر لشدة وجده علىٰ ابنه الراحل وحزنه عليه يستنكر عليه ويوبّخه علىٰ تغيّر سجاياه بابتعاده عنه ومفارقته إياه، وفي البيت الثاني أيضـاً يستنكر كيف يبلىٰ جسمه وتذهب بهجته وسناه، وكأنه يقول ما كان ينبغي أن يكون ذلك.

ونلاحظ أن أداة الاستفهام (كيف) من أكثر الأدوات التي استعملها الشاعر في رثاءه، ولعله في تلك المواقف العصيبة التي ألمت به سواء رحيل ابنه الصغير أو رحيل أخيه جعلته يسأل كثيراً عن حاله، سواء كان السؤال علىٰ حقيقته ـ وهذا قليل ـ أو بالخروج به إلىٰ معانٍ أخرىٰ من المعاني التي يخرج إليها الاستفهام ـ وهذا الأغلب ـ.

ومن أدوات الاستفهام التي استعملها الشاعر "هل" التي تدل علىٰ التصديق، ومنه قوله:

وَهَـــلْ أَبْقَـــتْ لـــيَ الأَيّـــامُ دَمْعَـــاً فَيُســـعدُني بِـــهِ الجَفْـــنُ الشّـــقيُّ؟

حيث يسأل الشاعر وهو في حالته هذه عن عدم إبقاء الأيام له دمعًا لكي يُسعد به عينه، والاستفهام هنا أتىٰ بمعنىٰ النفي، ولكنه ليس نفيًا محضًا، فمع النفي أيضًا معنىٰ آخر هو التأسف والحزن والشكوىٰ علىٰ ما أصابه من مصائب ومتاعب متعاقبة، حتىٰ لم يبق في عينيه دمع!

كما يسأل ويستفهم بالهمزة التي تدل علىٰ التصديق والتصور عكس (هل) التي تدل علىٰ التصديق فقط:

أَتَمْضِـــي أَنْـــتَ مُنفـــرداً وَأَبقـــىٰ؟ لَقَـــدْ غَـــدَرتكَ نَفســـكَ يَـــا وفيُّ

ويكرر الشاعر أداة الاستفهام" هل" في قوله:

فَهَـــلْ حَـــقٌ حَياتـــكَ يـــا زُهيـــرٌ؟ وَهَـــلْ حَـــقٌ وفاتـــكَ يَـــا عَلـــيُّ؟

يستفسر الشاعر عن هذه الحالة المفاجئة له وهي موت أخيه علي، وحياة زهير ويعني نفسه، وقد استعمل أسلوب الاستفهام "هل" مرتين؛ لأنه مندهش ولا يصدق ما يجري حوله.

كما نجده يستعمل حرف الاستفهام (كم) في أكثر من موضع:

وكَـــمْ دَرّتْ مَكَارمـــهُ لِعَـــافٍ كَمَـــا دَرّتْ لِأَطفـــالٍ ثِـــدِيُّ

وكـــمْ أَرْوَىٰ عَلَـــىٰ ظَمَـــأٍ نَـــدَاهُ سَـــقَاهُ هَاطـــل الغَيـــث الـــرَّويُّ

فقد كرّر الشاعر الاستفهام بـ (كم) مرتين التي يراد بها السؤال عن العدد، وهي هنا خبرية تفيد التكثير، فهو يريد أن يخبر عن كثرة مكارم المتوفىٰ وأفضاله علىٰ المحتاجين وطالبي العطاء.

النداء: يعد النداء أسلوبًا من أساليب الإنشاء الطلبي وقد عرّفه علماء البلاغة بأنه: طلب الإقبال بحرف ناب مناب أدعو لفظًا أو تقديرًا -أي طلب المتكلم إقبال المخاطب حسًّا أو معنىٰ والمراد بالطلب الطلبي اللفظي؛ لأنه هو الذي من أقسام الإنشاء [1]، وقد يخرج النداء عن معناه الأصلي إلىٰ معان أخرىٰ كالإغراء والاختصاص، وقد كثر هذا الأسلوب في قصائد الشاعر، ومن شواهد ذلك قوله في رثاء ابنه:

فَـدَعْ يـا قَلْـبُ مَـا قَـدْ كُنـتَ فيـهِ أَلَسْـتَ تَـرَىٰ حَبيبـكَ قَـدْ جَفَاكَـا

يدعو الشاعر في هذا المقام واللحظة الحرجة قلبه بهذا الحرف (يا) حيث يطلب منه ترك ما كان فيه علىٰ سبيل الإغراء.

---

[1] ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط٣، ٣/ ٩١.

ومن شواهد النداء قوله:

فَيَـا مَـنْ غَـابَ عَنِّـي وهـوَ رُوحِـي وَكَيـفَ أُطِيـقُ مـن رُوحـي انفِكَاكَـا

ينادي الشاعر في هذا البيت ابنه الذي يصفه بأنه كالروح التي لا يمكن أن يبقىٰ الشخص حيّاً بدونها ويناديه بقوله (يا من غاب عني) وكأن الشاعر يرىٰ بأن ابنه هو من اختار الغياب بنفسه ولم يغيَّب، واستعمال الشاعر لهذا الأسلوب يدل علىٰ شدة الحزن والمعاناة مما جعله يوجه اللوم والعتاب لابنه.

كما نجد لدىٰ الشاعر استعمال حرف النداء (وا)

فَـوا أَسَـفًا لِجِسـمِكَ كيـفَ يَبْلـىٰ وَيَـذهَبُ بَعْـدَ بَهْجَتِـهِ سَـنَاكَا

وهذا الحرف لم يأت إلا مرة واحدة في مرثيته لابنه، وهو من حروف النداء المستعملة فيما يُعرف بالنُّدبة، ويدل علىٰ التحسّر والتفجّع والتوجّع.

ومن شواهد النداء قوله:

وَيَـا خَجَلـي إذا قـالوا مُحـبّ ولـمْ أَنْفَعْـكَ في خَطْـبٍ أَتَاكَـا

فاستعمل أداة النداء (الياء) ونادىٰ الخَجَلَ مجازاً، والنداء هنا من باب التعجب من نفسه والاستنكار عليها، فقد أصابه الخجل الشديد ممن حوله؛ لأنهم يعلمون محبته الشديدة لابنه ومع ذلك لم ينفعه في تلك اللحظات الحرجة وذلك الخطب المدلهم.

ويتكرر هذا الحرف كثيراً في هذه المرثية، ومنه قوله:

فَيَـا مـنْ قَـدْ نَـوىٰ سَـفَراً بَعيـداً متـىٰ قُـل لـي رُجوعـكَ مـن نَواكَـا

وقوله كذلك في ختام مرثيته:

فَيَـا قبـرَ الحبيـبِ وَدَدتُ أَنِّـي حَمَلـتُ وَلـو عَلـىٰ عينـيْ ثَراكَـا

فمناداة الشاعر لابنه الذي سافر سفراً بعيداً إلىٰ مكان ناءٍ لا يرجىٰ رجوعه منه، وكذلك مناداته للقبر الذي ضم ابنه وحبيبه يدلنا علىٰ شدة حب الشاعر لابنه ومعاناته من رحيله ويأسه من رجوعه ولا شك أن أسلوب النداء بالياء هنا قد أدىٰ هذا المعنىٰ الذي أراد الشاعر البوح به علىٰ أكمل وجه.

ومن شواهد النداء قوله في مرثية قالها في أخيه علي:

ولو كَانَ الرّدىٰ بَشَراً سَوياً لَهَابكَ أيّها البشرُ السّويُّ

وقد استعمل الشاعر هنا حرف النداء (أي) الذي ينادىٰ به القريب، ويريد به أخاه عليّا الذي رحل عن هذه الحياة، ولا شك أن المناداة بأداة نداء القريب تدل علىٰ قرب الشخص المنادىٰ وحظوته لدىٰ المنادي.

وينادي الشاعر (جزعه) كما ينادي (ظمأه) مستعملا حرف (الياء) ويأمرهما بالتصبر والتسلّي مما يدل علىٰ أن الشاعر قد وصل إلىٰ مرحلة متقدمة من الجزع والمعاناة، فيقول:

فيَا جَزَعي تعزّ فَلَيْسَ صَبْرٌ وَيَا ظَمَأيْ تَسَلَّ فَلَيسَ رِيٌّ

وهكذا نجد أن الشاعر قد أكثر من استخدام أسلوب النداء في جميع مراثيه، للبوح عن مشاعره وعواطفه بطريقة النداء؛ لما في هذا الأسلوب من نكتٍ ومعان بلاغية ولغوية لا توجد في غيره من الأساليب الإنشائية؛ لأن النداء يدل علىٰ طلبِ شيءٍ لم يستطع المنادي حصوله وقت الطلب.

كما نلاحظ كثرة اختيار الشاعر لحرف النداء (يا) واستعماله في أغلب مراثيه وقلة استعمال الحروف الأخرىٰ من أحرف النداء كـ (وا) و (أي).

وفي ختام الحديث عن الإنشاء الطلبي نستطع القول بأن الشاعر عمد إلىٰ

استعمال أسلوب الإنشاء الطلبي في مراثيه لما يحمله من معان ودلائل لغوية ونكات بلاغية، فاستعمل النداء والأمر والنهي والاستفهام، وقد اخترت في هذا المطلب ما رأيته أكثر حضوراً في الأبيات موضع الدراسة، كما تجدر بنا الإشارة إلىٰ أن أسلوبي النداء والاستفهام قد كُثر استعمالهما يلي ذلك الأمر والنهي وبعض الأساليب الإنشائية الأخرىٰ.

ثالثا: التشبيه:

التشبيه مأخوذٌ من شبّه يشبّه تشبيهـًا، والشبهُ ضَرْبٌ من النحاس يلقىٰ عليه دواء فَيَصْفَرّ، وسمي شبهـًا؛ لأنه شبهٌ بالذهب، وفي فلان شبهُ من فلان، وهو شِبْهُهُ أي: شبيههُ، وتقول شبَّهتُ هذا بهذا أي يشبهُ بعضه بعضا[1] أما في الاصطلاح فهو: "الدلالة علىٰ مشاركة أمرٍ لآخر في معنىٰ"[2]

ولا يشك أحد في أثر التشبيه البالغ علىٰ النفوس، وقد عمد شاعرنا إلىٰ التشبيه في بعض المواضع من قصائد الرثاء؛ لما يحمله التشبيه من أسرار متنوعة فهو يضفي علىٰ المعنىٰ جمالاً ووضوحـًا، كما أن له أثراً علىٰ المتلقي حيث يجعله يتفاعل مع قائل النص في انفعالاته ومشاعره إلىٰ غير ذلك من آثار التشبيه علىٰ المعنىٰ، ومن شواهد التشبيه قوله في رثاء ابنه:

فيا مَنْ غابَ عني وَهوَ رُوحي ... وكيفَ أُطيقُ مِنْ رُوحي انفِكَاكَا

حيث شبّه ابنه بروحه علىٰ سبيل التشبيه البليغ، ويعدّ من أبلغ التشبيهات حيث

(١) ينظر: العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي ٣/ ٤٠٤، مادة (شبه).

(٢) التعريفات لعلي بن محمد الشريف الجرجاني، ضبطه وصححه مجموعة من المحققين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ، ص ٥٨.

يجعل المشبه نفس المشبه به علىٰ سبيل الادعاء والمبالغة.

وفي رثاء أخيه عليّ يستعمل تشبيهات متوالية مما يدل علىٰ حبه الشديد لأخيه فيقول:

وَحَقّـًا صَـارَ ذاكَ البَحـرُ يَبْسـًا وَصَـوَّحَ ذلـكَ الـرَّوضُ البَهَـيُّ

وَأَقْلَـعَ ذلـكَ الغَيـثُ المُرَجّـىٰ فَـلا الوَسـميُّ مِنـهُ ولا الـوَليُّ

حيث شبه أخاه بالبحر والروض والغيث علىٰ طريقة التشبيه البليغ، فهو يُشْبه المشبهات بها في صفات الكرم والسخاء وكثرة العطاء.

كما يشبه علىٰ طريقة تشبيه التمثيل كثرة مكارمه للعفاة وطالبي النوال بعطاء الأمهات للصغار ذلك الحليب الذي يدر من ثُديّهنّ، وهو عطاء بلا مقابل وسخاء بلا حدود، يقول:

وكَـم دَرّتْ مَكارمـهُ لعَـافٍ كَمَـا دَرّتْ لأطفـالٍ ثِـديُّ

في الشطر الأول نجد الاستعارة حيث شبّه عطاء الشخص المرثي بالدّر علىٰ سبيل الاستعارة التصريحية، ويمكن أن نجريها استعارة مكنية أيضًا حيث شبّه المرثي بالثدي ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الدر، فالذي يدرّ هو الثدي بجامع العطاء وحاجة الناس لهذا العطاء وهذا الدر واستمراريته، وفي الشطر الثاني تشبيه تمثيلي فالشاعر بعدما أتىٰ بالاستعارة في الشطر الأول وضّحها في الشطر الثاني بطريقة التشبيه التمثيلي، وكان بإمكانه الاكتفاء بالاستعارة في الشطر الأول للدلالة علىٰ المعنىٰ المراد، وهنا ملحظ علىٰ هذا التشبيه، فالاستعارة كما هو معلوم تقوم علىٰ الخفاء وجعل السامع يذهب كل مذهب، ولكن الشاعر كما ذكرت لم يكتف بالاستعارة فأتبعها بالتشبيه، وهذا من الشواهد علىٰ الاستعارات التي أتت بعدها تشبيهات توضّحها، والشاعر لو اكتفىٰ بالاستعارة لكان أجود علىٰ حدّ قوله تعالىٰ:

﴿ وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾ (١)

وخلاصة القول في التشبيه نقول إن التشبيهات التي وردت في مراثي الشاعر أغلبها تشبيهات بليغة، وعلىٰ الرغم من قلتها إلا أنها قد جاءت رائعة ومعبّرة، فقد كانت ناتجة عن نفسية متأثرة بما حدث من رحيل الأحبة وفراقهم، وقد أدت إلىٰ إيضاح المعاني وإبرازها، كما اتسمت بقربها ومجيئها متوسطة بين السطحية والتقريرية المباشرة وبين العمق والصعوبة، ومن هنا نستطع القول بأن الشاعر قد أحسن في تشبيهاته إلىٰ حد كبير.

رابعا: الطباق.

الطباق ويسمىٰ بالتطبيق وبالتكافؤ، وهو الجمع بين معنيين متضادين (٢)، وأسلوب الطباق من المحسّنات البديعية المعنوية، وينقسم إلىٰ طباق إيجاب، وطباق سلب، وقد يكون بين اسمين، أو فعلين، أو حرفين، أو بين اسم وفعل، وقد كثر هذا الأسلوب في القرآن الكريم والحديث النبوي، وكثرته في كلام الله ورسوله خير دليل علىٰ شرفه وأهميته، ولا شك أن الضد يُظهر حسنه الضد.

وإذا نظرنا في مرثيات الشاعر فإننا نجده مُولَعًا بهذا الأسلوب في قصائده، كما هو المعروف عن كثير من الشعراء في تلك العصور ـ أي عصور الدول المتتابعة ـ ومن أمثلة الطباق قول الشاعر في رثاء ابنه:

وَكَيْفَ تَلُومُ حَادثَةً وفيها ... تبيَّن مَنْ أَحَبَّكَ أو قَلاكَا

(١) سورة مريم الآية ٤.

(٢) ينظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين أحمد بن علي السبكي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢/ ٢٢٥.

حيث وقع الطباق بين فعلين ماضيين متضادين وهما (أحبَّك، قلاك) فالحب ضد القِلىٰ، فالشاعر يعاتب نفسه قائلا لها: كيف تجزعين من هذا الحادثة وقد كشفت لك معادن الناس وحبهم وبغضهم لك؟ والطباق هنا بلا شك أضاف للنص قيمة جمالية سواء في اللفظ من حيث التضاد والتنافر الذي أتىٰ مناسبًا، أو في المعنىٰ الذي عبّر عنه الطباق هنا بدقة، كما أن استعمال الشاعر للفظة القلىٰ دون سواها اختيار دقيق؛ لأن القلىٰ هو أشد أنواع البغض.

ومن أمثلة الطباق قوله:

لَعَمْرِيْ كُنتَ عَنْ هَذا غَنيّاً ولَمْ تَعْرفْ ضَلالكَ مِنْ هُدَاكَا

فالطباق وقع بين اسمين متضادين (الضلال، الهدىٰ) فالضلال عكس الهدىٰ، فكل من حاد عن طريق الهدىٰ فهو علىٰ ضلال.

ومن أمثلة الطباق قوله:

تَمُوتُ وَمَا أَمُوتُ عَليكَ حُزناً وَحَقّ هَوَاكَ خُنتكَ في هَوَاكَا

ففي البيت طباق سلب بين قوله (تموت) وقوله (وما أموت) فهنا أثبت الشاعر لابنه الموت ونفاه عن نفسه، فالشاعر يبدي دهشته من بقاء نفسه علىٰ قيد الحياة وكيف أنه لم يمت من شدة حزنه ووجده علىٰ فراق ابنه، وقد أحسن الشاعر في توظيفه للطباق في خدمة المعنىٰ وبيانه.

ومما ورد فيه الطباق قوله في مرثيته لأخيه علي:

تَكدّرَ فِيكَ صَافي العيش لما عَدِمتكَ أيَّها الخِلّ الوَفيُّ

حيث وقع الطباق بين الفعل والاسم (تكدّر، صافي) وهو من الطباق المختلف حيث وقع بين فعل واسم، والطباق هنا وظّفه الشعر توظيفًا مناسبًا للمعنىٰ المراد،

فقد تكدّرت حياته التي كانت صافية لا يشوبها كدر، والكدر والصفاء تعبيران يعبَّر بهما عن طيب العيش وبؤسه فيكنّىٰ بهما عنه، كما في بيت عمرو بن كلثوم الشهير:

وَنَشْـرَبُ إِنْ وَرَدْنَـا المـاءَ صَـفْواً وَيَشْـرَبُ غَيرُنَـا كَـدَراً وَطِينَـا[1]

ومن أمثلة الطباق قوله:

فَبَعْـدَكَ لَـيْسَ يُفرحنـي بَشـيرٌ وَبَعْـدَكَ لـيسَ يُحزننـي نَعِـيٌّ

قد وقع الطباق بين فعلين مضارعين هما (يفرحني ويحزنني) وقد أجاد الشاعر في استعمال الطباق هنا، وأكّد المعنىٰ الذي يريد تأكيده بهذا الأسلوب وهذه المفارقة العجيبة حيث لم يعد لا للفرح ولا للحزن مكان في حياته بعد رحيل أخيه، فالأخبار المفرحة والمحزنة عنده سواء!

ومن الطباق قوله في نفس المرثية:

عَصَاني الصَّبرُ بَعْدَكَ وهو طَوْعي وطَاوعَ بَعْدَكَ الدّمعُ العَصِيُّ

فقد وقع الطباق بين الفعلين الماضيين (عصاني، وطاوع) كما نجد في البيت طباقًا آخر في قوله (طوعي، العصي) وقد أكسب هذا الطباق المتكرر في هذا البيت جمالاً، كما أثّر في الجرس الموسيقي والإيقاعي من حيث إعادة الكلمات المتشابهة والمتضادة.

ومن الطباق المختلف أو المزدوج الذي وقع بين الفعل المضارع والاسم قوله:

وَهَـلْ أَبْقَـتْ لـي الأيـامُ دَمعَـًا فَيُسـعِدُني بـه الجَفْـن الشّـقيُّ

فقد وقع الطباق بين (يسعدني، والشقي) فالشقاء ضد السعادة، وقد استعمل في

---

[1] ديوان عمرو بن كلثوم، جمع وشرح د. اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١١هـ، ص ٩٠.

العبارة الأولىٰ الفعل المضارع (يسعدني) لدلالته علىٰ التجدد والحدوث؛ فهو يتفاءل بأن تتجدد السعادة كثيراً في مسيرة حياته بينما استعمل اسم الشقاء؛ لأنه يتفاءل ألا يتكرر معه مرة أخرىٰ.

ومن الطباق بين الاسمين قوله:

فَيَا جَزَعِي تَعزّ فَلَيْسَ صَبرٌ ... وَيَا ظَمَأيْ تَسَلَّ فَلَيسَ رِيٌّ

فقد وقع الطباق بين (الجزع والصبر) وبين (الظمأ والري) فقد أتىٰ بهذه الألفاظ المتضادة مستثمراً أسلوب النداء فنادىٰ جزعه وأمره بالعزاء؛ لأنه لم يعد للصبر مكان في نفسه كما نادىٰ نفسه الظامئة وأمرها بالسلوّ والتناسي لما حدث؛ لأنه لم يعد هناك منهلٌ يروي الغليل، ولا شك أن الطباق في هذا البيت أدىٰ إلىٰ تقوية المعنىٰ وتأكيده في ذهن المتلقي.

ومن الطباق ما جاء في قوله:

أتمضي أنتَ مُنفرداً وأبقىٰ ... لقدْ غَدَرتكَ نفسكَ يا وَفِيُّ

فقد وقع الطباق بين الفعلين (أتمضي، وأبقىٰ) والمضي ضد البقاء، وقد أدخل همزة الاستفهام علىٰ الفعل تمضي وهو استفهام تعجبي يدل علىٰ عدم تقبّل الشاعر لوفاة أخيه، كما نجد في البيت طباقًا آخر بين (غَدَرتكَ، وفِيّ) والغدر والوفاء ضدّان أتىٰ بهما الشاعر هنا ليثبت لأخيه صفة وشيمة كبرىٰ وهي الوفاء، فهو شخصٌ وفيٌّ لا يمكن أن يغدر بأخيه ويفارقه ولكن نفسه هي التي غدرت به وفارقته، ولا شك أن أسلوب الطباق كان مؤديًا للمعنىٰ في هذا الموضع، ومناسبًا في هذا المقام.

ومن أجمل ماورد عند شاعرنا من الطباق ما وقع بين اسمين في جملتين متماثلتين، وذلك في قوله:

فَهــلْ حَــقٌّ حياتــكَ يــا زُهيــرٌ وَهَــلْ حَــقٌّ وَفاتــكَ يَــا عَلَــيُّ

فقد وقع الطباق بين (حياتك، ووفاتك) وهما اسمان متضادان، ومن الملاحظ أن صدر البيت وعجزه متشابهان في اللفظ والتركيب، ومتضادان من حيث المعنىٰ والمضمون مما أعطىٰ المعنىٰ وضوحًا وجلاء ورونقًا وبهاء.

ومما وقع فيه الطباق بين اسمين قوله:

مَضَــوا بســريرهِ وعليــهِ نُــورٌ جَلَــيٌ تحتــهُ سِــرٌ خَفِــيُّ

فقد وقع الطباق بين (جلي وخفي) وكلاهما اسمان متضادان في المعنىٰ، فالأول يدل علىٰ الوضوح والظهور، والثاني علىٰ الستر والخفاء، فالنور الذي ظهر من الفقيد واضح وجليٌ يراه الناس عيانًا وسبب هذا النور الجليُّ أمرٌ خفي وكرمٌ ربّاني.

وخلاصة القول في هذا الموضوع نرىٰ أن الشاعر عمد إلىٰ استعمال محسنات بديعية متنوعة ولكن الطباق قد كان أكثر ظهوراً في مرثياته، ولذلك آثرت الحديث عنه وتجليته من بين سائر الفنون والأساليب الأخرىٰ التي لم تكن بتلك الكثرة وذلك الظهور، وربما أن نفسية الشاعر في تلك اللحظات الحرجة لحظات الفقد والفراق جعلته يميل إلىٰ هذا الأسلوب وهذا المحسّن الذي جاء ـ من وجهة نظري ـ مناسبًا في كثير من المواضع.

خامسا التناص:

ويعنىٰ به تشكّل النص من نصوص سابقة له، أو معاصرة له، وهو من التقنيات الفنية التي يستخدمها الأدباء في شعرهم ونثرهم، فإذا أحسن الأديب استخدامه وتوظيفه في النص أعطىٰ النص جمالاً، ويعرّف التناص بأنه "تَضَمُّن نصّ ما نصوصًا أو أفكاراً أخرىٰ سابقة عليه عن طريق الاقتباس أو التضمين أو التلميح أو

الإشارة أو ما شابه ذلك من المقروء الثقافي لدىٰ الأديب؛ بحيث تندمج هذه النصوص أو الأفكار مع النص الأصلي وتندغم فيه؛ ليتشكل نص جديد واحد متكامل"[١]

وإذا نظرنا في رثاء البهاء زهير للأقارب فإننا نقف علىٰ عدد من الشواهد التي تناص فيها الشاعر مع نصوص أخرىٰ سواء كان تناصاً مع الآيات القرآنية الكريمة أو مع الأمثال أو مع الأبيات الشعرية، ومن شواهد ذلك قوله:

وَلَـــو كَـــانَ الـــرّدىٰ بَشَـــراً سَـــوِيّا لهَابَـــكَ أَيَّهَـــا البَشَـــرُ السَّـــويُّ

فالشاعر هنا في رثاءه لأخيه علي يتناص مع قوله تعالىٰ: ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾[٢] وقد وظف الشاعر العبارة القرآنية توظيفاً مناسباً في هذا السياق، فهو يريد أن يثبت للمتلقي شجاعة أخيه الذي كان مُهاباً من الجميع، ولو كان الموت من البشر لهاب أخاه؛ لأن أخاه كان رجلاً شُجاعاً مُهاباً لا يقوىٰ علىٰ مواجهته أحد من البشر.

ويقول:

لقـــدْ بَلَغَـــتْ بـــهِ رُوحـــي التَّراقـــي وقـــد نَظَـــرتْ بـــهِ عَيْنِـــي الهلاكَـــا

يتناص الشاعر مع الآية الكريمة ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴾ [٣] فالشاعر يكاد أن يلحق بابنه من شدة ما أصابه، فروح شاعرنا قد بلغت منه إلىٰ التراقي، ولا شك أن

---

[١] التناص نظريا وتطبيقيا، د. أحمد الزعبي، مكتبة الكتاني، إربد، الأردن ط ١، ١٤١٥هـ، ص ٩.

[٢] سورة مريم الآية ١٧.

[٣] سورة القيامة الآية ٢٦.

التناص مع الآية هنا قد عبّر به الشاعر عن شدة حزنه علىٰ فراق ابنه حتىٰ ليكاد أن يلحق بابنه ويموت معه.

ويقول مخاطبًا نفسه:

فَـــلا تَجْـــزَعْ لِحَادثَـــةِ اللَّيَـــالي وَقُـلْ لـيْ إنْ جَزِعْـتَ فَمَـا عَسَـاكَا

وهنا تناص مع قول الإمام الشافعي [1]:

ولا تجـــزعْ لحَادثَـــةِ الليَـــالي فَمَـــا لحَـــوادِثِ الـــدُّنيَا بَقَـــاءُ

ففي الشطر الأول نجد أن الشاعر قد ضمّن شطراً من بيت الشافعي وهو قوله: "فلا تجزع لحادثة الليالي" وقد جاء التناص هنا حسنًا ومناسبًا للمعنىٰ الذي طرقه الشاعر فهو ينهىٰ نفسه عن الجزع للحوادث والخطوب كما هو الحال عند الشافعي، بينما يختلف عنه في عجز البيت، فالشافعي يُطَمْأِنُ بأن الحوادث لن تبقىٰ وستزول، بينما البهاء زهير يعبّر بمعنىٰ آخر وهو أن الجزع لن يفيد ولن ينفع.

وقوله:

وكيـــفَ تَلُـــومُ حَادثـــةً وفيهَـــا تَبَـــيَّنَ مـــنْ أَحبَّـــكَ أو قَلاكَـــا

تناص مع قول الشاعر [2]:

جَـــزَىٰ اللهُ الشـــدائدَ كـــلّ خَيـــرٍ عَرَفْـــتُ بهـــا عَـــدوّي مـــن صَـــديقِي

وهنا تناص في المعنىٰ العام للبيت، فالشاعر ينعىٰ علىٰ نفسه ويلومها لِلَومها هذه الحادثة التي ألمت به، فهي وإن كان ظاهرها ضرّ وشرّ ففي باطنها خير وفائدة؛ لأنه من خلالها عرف أحبابه من أعدائه، وهذا المعنىٰ يتوافق تمامًا مع معنىٰ البيت الذي

---

(١) ديوان الإمام الشافعي، ص ٣٥.

(٢) ينظر: ص ١٣ من هذا البحث.

تناصّ الشاعر معه.

ومن التناص قوله:

أرَىٰ البـــاكينَ فيـــكَ مَعـــي كَثيـــراً ولـيسَ كمـنْ بَكَـىٰ مَـنْ قَـدْ تَبَـاكَىٰ

ويتضح لنا هنا تأثر الشاعر ببيت المتنبي الذي يقول فيه:

إذا اشـــتَبَهتْ دُمُـــوعٌ في خُـــدودٍ تَبـيَّنَ مَـنْ بَكَـىٰ ممّـن تَبَـاكَىٰ.[1]

والتناص في البيت هنا أتىٰ لفظا ومعنىٰ ففي الشطر الأول تناص البهاء زهير مع البيت المتنبي في المعنىٰ، فالباكين كُثُر والدموع مَظْهَرها متشابه متقارب، فالمعنىٰ واحد عند كلا الشاعرين وإن اختلف التركيب، بينما في الشطر الثاني يتفق البهاء زهير مع المتنبي لفظا ومعنىٰ، ولكن نستطع أن نقول بأن البهاء زهير هنا قد استثمر بيت المتنبي ووظفه توظيفًا رائعًا للدلالة علىٰ المعنىٰ المراد.

ويقول:

وَطَـــالَ سُـــرَاكَ في لَيـــلِ التّصَـــابي وقد أَصْبحتَ لم تَحْمَدْ سُراكَا

تناص مع المثل العربي (عند الصباح يحمد القوم السُّرىٰ) ويضرب هذا المثل في احتمال المشاق والصعاب والحثّ علىٰ الصبر رجاء الفوز ونيل المراد، والشاعر هنا يلوم نفسه قائلا: لقد طال سُراكِ يا نفس في ظلمات التصابي وقد أصبحتِ ولم تحمدي ذلك السُرىٰ، فهو يشبه نفسه بمن طال سيره ليلاً في طريق خاطئ وعندما أسفر الصباح تبين له أنه كان ضالاً للطريق الصحيح، فأصبح ولم يحمد سراه، ولا شك أن التناص هنا مع هذا المثل أعطىٰ المعنىٰ المراد قوة ووضوحا وعبّر عنه وصوره في أحسن تعبير.

(١) ديوان المتنبي، ص ٢٢٠.

الخاتمة

بعد هذه الجولة الماتعة مع رثاء الأقارب عند البهاء زهير خلص البحث إلىٰ جملة من النتائج وهي علىٰ النحو الآتي:

- عمق ثقافة البهاء زهير وكثرة مصادره في أشعاره.
- سهولة ووضوح لغة الشاعر في مراثيه، وخلوها من التصنع والتكلف في مجملها، كما كانت لغته سلسة مواكبة لعصره وللحياة المنفتحة علىٰ كثير من الحضارات الوافدة والمجاورة، لأجل ذلك كانت ألفاظه في مجملها واضحة يعرفها الجميع ولا يحتاج فيها للرجوع إلىٰ قواميس ومعاجم لمعرفة معانيها.
- خلو قصائد الرثاء من الألفاظ العامية أو الكلمات المصرية الدارجة في عصره التي نجدها أحيانا في أغراضه الأخرىٰ خاصة في الغزل أو في الشعر الفكاهي والهزلي.
- براعته في غرض الرثاء وإن كان مُقلّا، لكنه كان موفقًا فيه من حيث الأسلوب والصياغة، مع حسن اختيار الأوزان والقوافي.
- امتلاء قلب الشاعر بالحزن والأسىٰ في مرثياته، وصدقه في تجربته الشعرية، وظهور قوة عاطفته ولا سيما في رثاء ابنه.
- استعمال الشاعر للصور الفنية والبديعية في مراثيه ومن أبرز ما ورد عنده في ذلك التشبيه والطباق.
- الشاعر وإن كان مكثراً في شعره من فنون البديع كعادة شعراء عصره إلا أن قصائد رثاء الأقارب أتىٰ فيها البديع معتدلاً وبدون تكلّف.
- استخدم الشاعر في بناء قصيدة رثاء الأقارب تقنيات فنية كانت رافداً قويـًا في خدمة النص، كالتكرار، وبعض الأساليب الأخرىٰ كالأمر والاستفهام والنداء والتناص.

هذه أبرز النتائج التي توصلت إليها، وأسأل الله سبحانه وتعالىٰ التوفيق والسداد، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

- أحمد بن إبراهيم الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، أشرفت علىٰ تحقيقه وتصحيحه: لجنة من الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت.
- أحمد بن إبراهيم الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت.
- أحمد بن حسن الزعبي، التناص نظريا وتطبيقيا، مكتبة الكتاني، إربد، الأردن ط ١، ١٤١٥هـ.
- أحمد بن الحسين المتنبي (ديوانه)، شرح وتعليق د. يحيىٰ شامي، دار الفكر العربي، ط ١، ١٩٩٧م.
- أحمد بن عبد الوهاب بن محمد القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة: ١، ١٤٢٣هـ.
- أحمد بن علي المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان.
- بهاء الدين أحمد بن علي السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢/ ٢٢٥.
- أحمد محمد أحمد الشفة، شعر البهاء زهير ـ دراسة أدبية نقدية، رسالة ماجستير في جامعة أم درمان، السودان، ١٤٣٨هـ.
- أحمد بن محمد ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة١، ١٤٠٤هـ.
- أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- أميل ناصف، أروع ما قيل في الرثاء، ط ٢، بيروت، دار الجيل، ١٤١٤هـ.

- تماضر بنت عمرو (ديوان الخنساء) شرحه أبو العباس ثعلب، تحقيق: د. أنور أبو سويلم، ط ١، دار عمّار، ١٤٠٩هـ.
- خلود يحيىٰ أحمد جراده، فن الرثاء في الشعر في العصرين الفاطمي والأيوبي، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا ٢٠٠١م.
- الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي.
- خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفىٰ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- بهاء الدين زهير بن محمد (ديوانه)، شرح وتحقيق: محمد طاهر الجبلاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف، القاهرة.
- صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشروق، ط ١، ١٩٩٨م.
- عبد الفتاح شلبي البهاء زهير، دار المعارف، مصر، ط ٢.
- عبيد بن الأبرص (ديوانه) شرح: أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٩٠م.
- عز الدين السيد، التكرير بين المثير والتأثير، بيروت، عالم الكتب، ط ٢، ١٩٨٦م.
- علي عشري زايد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، مكتبة سينا، القاهرة، ط ٤، ١٤٢٣هـ.
- علي بن محمد الشريف الجرجاني، التعريفات، ضبطه وصححه مجموعة من المحققين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ، ص ٥٨.
- علي نجيب عطوي، البهاء زهير حياته وأدبه، ١٩٩٣م.
- عمرو بن كلثوم (ديوانه) جمع وشرح د. اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٨٩ه.
- لطيفة الراشد، الحديث الموضوعي ـ المنهج والتأصيل والتمثيل، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، ١، ١٤٤٣هـ.
- محمد بن إدريس (ديوان الشافعي) شرح وتعليق: د. عمر فاروق الطباع، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان.
- محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، تحقيق محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط، ١، ١٤٢٢هـ.
- محمد محمد أبو موسىٰ، التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، ط ٨، مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية، عابدين، القاهرة.
- جلال الدين محمد بن عبد الرحمن (الخطيب القزويني) الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط٣.
- محمد كامل حسين، دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين، دار الفكر العربي.
- جمال الدين ابن منظور محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة ٣، ١٤١٤هـ.
- محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة. الطبعة ٣، ١٤١٧ هـ.
- مهلهل بن ربيعة (ديوانه) شرح وتقديم: طلال حرب، الدار العالمية.
- يحيىٰ بن علي الخطيب التبريزي، الكافي في العروض والقافية، تحقيق: الحساني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط ٣، ١٩٩م.